آيات التحدِّي
في كتاب اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات التحدِّي
في كتاب الله

جمع وتفسير لآيات تحدَّى بها الله عز وجل
الكفار واليهود والنصارى والمنافقين... وأعجزهم)

بقلم
د. أمير علي الحداد

الكويت
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

المقدمة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ (الكهف)، الحمد لله الذي قال في محكم تنزيله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ (الحجر).

الحمد لله الذي أبقى القرآن معجزة دائمة، وتحدى الخلق جميعاً أن يأتوا بمثله إلى يوم القيامة.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ (الإسراء).

والصلاة والسلام على محمد بن عبدالله الذي أرسله الله للناس كافة، وآتاه آية باقية إلى يوم القيامة لأنه لا نبي بعده.. فقال ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبي إلّا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**» (البخاري).

إن المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرونٌ بالتحدي سالمٌ عن المعارضة.. وكل هذا اجتمع في كتاب الله (القرآن الكريم)..

وحيث أن الله تكفل بحفظ كتابه إلى يوم القيامة، فالمعجزة باقيةٌ إلى يوم القيامة.. والتحدي قائم إلى يوم القيامة.. وإعجاز من يتحدى قائم إلى يوم القيامة.. مجتمعين متظاهرين إنساً وجناً.

فماذا بعد الحق... إلا الضلال...

لقد بعث الله عز وجل نبيّه محمد عبدالله ﷺ في أمة امتهنت الفصاحة.. وعظّمت البلاغة.. وبلغت الغاية في فنون الكلام... وكانوا قبلة الخطباء والشعراء... وتحداهم بهذا الكتاب العظيم.. وكانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره.. فما استطاعوا.. بل لم يُنقل عن أحد منهم أنه حدّث نفسه أن يأتي بشيء من مثله.. فقال قائلهم.. الوليد بن المغيرة.. وهو من سادتهم.. «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن والله إن له لحَلاوة، وإن عليه لطَلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه».

وكان قد مرّ على النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ (غافر).

في هذه الورقات... أضع بين يدي القارئ مجموعة آيات تحدى الله بها الخلق جميعاً... وأعجَزَهم.. وأقام عليهم الحجة.. ومن تكبّر وتعدّى أهلكه الله عز وجل.. وبقيت كلمة الله هي العليا..

إعتمدَ جامعُ هذه الورقات على كتب التفسير المتوفرة في المكتبة الشاملة وخاصة تفسير السعدي، وتفسير الطبري، وأكْثَر من (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور.

اقتباسات.. مدعمة بأحاديث صحيحة.. مستخدماً الشبكة العنكبوتية والمكتبة الشاملة..

إنه جهد المقل في خدمة كتاب الله عز وجل.. سائلاً المولى أن يتقبل

هذا العمل وأن يجعله خالصاً لوجهة الكريم وأن ينفع به المسلمين.. وأن يرزق كاتبه الأجر والثواب.. في الحياة وبعد الممات.. والحمد لله رب العالمين.

د. أمير علي الحداد

الكويت

رجب ١٤٤٤م - فبراير ٢٠٢٣م

فأتوا بكتاب من عند الله!

آيات التحدي في كتاب الله -عز وجل-، أعجزت الكفار، واليهود، والنصارى والمنافقين، وكل من خالف هدي النبي ﷺ.

يأتي الأمر من الله -عز وجل- إلى رسوله، أن يطالبهم بأمر يعجزون عن تحقيقه، فتبطل حجتهم، مثل قوله -تعالى-: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ (سبأ:٢٤). ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ (فاطر:٣). ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنعام) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس). وفي هذه الآيات يتحدى الله -عز وجل- اليهود ويقيم عليهم الحجة، فيقول -عز وجل-: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القصص).

معنى الكلام: قل يا محمد، أَوَلَم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى من قبل؟ وقالوا لـمَا أوتي موسى وما أوتيته أنت: سحران تعاونا؟

- قيل للنبي ﷺ: قل يا محمد لمشركي قريش: أو لم يكفر هؤلاء الذين أمروكم أن تقولوا: هلّا أُوتي محمد مثل ما أوتي موسى -بالذي أوتي موسى- من قبل هذا القرآن؟ ويقولوا للذين أنزل عليه وعلى عيسى ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ (القصص: ٤٨)، فقولوا لهم إن كنتم صادقين إن ما

أوتي موسى وعيسى سحر، فأتوني بكتاب من عند الله، هو أهدي من كتابيهما، فإن هم لم يجيبوكم إلى ذلك فاعلموا أنهم كَذَبة، وأنهم إنما يتبعون في تكذيبهم محمداً وما جاءهم به من عند الله أهواء أنفسهم، ويتركون الحق وهم يعلمون.

وقال الكلبي: بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته، فلما رجع الجواب إليهم ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، وقال قوم: إن اليهود علَّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة.

فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أي أَوَلَم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وإنا كافرون بكل واحد منهما.

وفيه ثلاثة أقاويل: **أحدها**: موسى ومحمد -عليهما السلام-، وهذا قول مشركي العرب. وبه قال ابن عباس والحسن. **الثاني**: موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة، وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد؛ فيكون الكلام احتجاجاً عليهم. **الثالث**: عيسى ومحمد -صلى الله عليهما وسلم-، وهذا قول اليهود اليوم، وبه قال قتادة. وقيل: أَوَلم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

وقد كرر الله -سبحانه- تحدي الكفار بها في مواضع في القرآن، منها هذا، ومنها قوله -تعالى- في سورة سبحان: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ

ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء)، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود)، وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس).

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين، أو الكتابين صادقين ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ (القصص: ٥٠)، أي: لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، وجواب الشرط ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (القصص: ٥٠) أي: آراءهم الزائغة، واستحساناتهم الزائفة، بلا حجة ولا برهان.

وقيل المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، ووصف (كتاب) بـ (من عند الله) إدماج لمدح القرآن والتوراة بأنهما كتابان من عند الله، والمراد بالتوراة ما تشتمل عليه الأسفار الأربعة المنسوبة إلى موسى من كلام الله إلى موسى أو من إسناد موسى أمراً إلى الله لا كل ما اشتملت عليه تلك الأسفار فإن فيها قصصاً وحوادث ما هي من كلام الله، فيقال للمصحف هو كلام الله بالتحقيق ولا يقال لأسفار العهدين كلام الله إلا على التغليب، وقد تحداهم القرآن في هذه الآية بما يشتمل عليه القرآن من الهدى ببلاغة نظمه، وهذا دليل على أن ما يشتمل عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه.

فمعنى ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ إن لم يستجيبوا لدعوتك، أى إلى الدين بعد قيام الحجة عليهم بهذا التحدي، فاعلم أن استمرارهم على الكفر بعد ذلك ما هو إلا اتباع للهوى ولا شبهة لهم في دينهم.

ويجوز أن يراد بعدم الاستجابة عدم الإتيان بكتاب أهدى من القرآن، لأن فعل (الاستجابة) يقتضي دعاء ولا دعاء في قوله ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾؛ بل هو تعجيز، فالتقدير: فإن عجزوا ولم يستجيبوا لدعوتك بعد العجز فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، أي لا غير.

وقوله: ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب ﴿فَأْتُوا۟﴾ أي إن تأتوا به أتبعه، وهو مبالغة في التعجيز؛ لأنه إذا وعدهم بأن يتبع ما يأتون به فهو يتبعهم وذلك مما يوفر دواعيهم على محاولة الإتيان بكتاب أهدى من كتابه لو استطاعوه فإن لم يفعلوا فقد حق عليهم الحق ووجبت عليهم المغلوبية فكان ذلك أدل على عجزهم وأثبت في إعجاز القرآن. ولكونه ممتنع الوقوع أمر اللهُ رسولَه أن يقوله. وقد فهم من قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ ومن إقحام ﴿فَٱعْلَمْ﴾ أنهم لا يأتون بذلك البتَّة وهذا من الإعجاز بالإخبار عن الغيب. وجاء في آخر الكلام تذييل عجيب وهو أنه لا أحد أشد ضلالاً من أحد اتبع هواه المنافي لهدى الله. و(من) اسم استفهام أفادت العموم فشمل هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم وغيرهم، وبهذا العموم صارت تذييلاً ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القصص).

فأتوا بعشر سور مثله!

من أعظم النعم على المسلمين كتابُ الله - عز وجل - تكلم به حقيقة وأنزله على رسول الله ﷺ وتكفل بحفظه.

فهو باق إلى يوم القيامة، لا يناله حذف ولا تحريف ولا تغيير، ولا حتى بحرف واحد منه.

ولذلك يبقى معجزة وحجة على البشر جميعاً، وتبقى آيات التحدي فيه قائمة إلى يوم القيامة، مهما تطور البشر وتقدم العلم وتميزت وسائل البحث، لن يأتوا بسورة من مثله، لأنه كلام الله، وليس كلام مخلوق.

من الآيات المعجزة في كتاب الله هذه الآيات من سورة هود وسورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ (هود).

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور).

وفي تفسير هذه الآيات ورد ما يلي:

الكلام هنا في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا، هذا كلام مفترى، وقرعهم بالحجة، والاستفهام إنكاري.

والافتراء: الكذب الذي لا شبهة فيه، فهو الكذب عن عمد، كما تقدّم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ﴾ (المائدة: ١٠٣).

أمرَ الله – سبحانه – رسوله ﷺ أن يجيبهم بما يقطعهم، ويبيّن كذبهم، ويظهر به عجزهم، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني، ووصف السُّورَ بما يوصف به المفرد، فقال: (مثله)، ولم يقل: أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة إلى حد الإعجاز.

والإتيان بالشيء، جلبه، سواء كان بالاسترفاد من الآخر أم بالاختراع من الجالب وهذا توسعة عليهم في التحدي، واختير هذا الفعل دون نحو، فليقولوا مثله ونحوه، لقصد الإعذار لهم بأن يقتنع منهم بجلب كلام مثله ولو من أحد غيرهم.

وتحداهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله، كما في سورة البقرة وسورة يونس، فقال ابن عباس وجمهور المفسرين، كان التحدي أول الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن، وهو ما ورد في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس.

ثم وصف السُّورَ بصفة أخرى، فقال: (مفتريات)، ومعنى (مفتريات) أنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن أي بمثل قصص أهل الجاهلية وأكاذيبهم، وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي.

﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للتحدي بالعشر السور ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الإنساني، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكاً لله

سبحانه وقوله ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ أي: ادعوا من استطعتم متجاوزين الله – تعالى – ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تزعمون من افترائي له ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي: فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم به من الإتيان بعشر سور مثله، ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم.

ومعنى أمرهم بالعلم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، أمرهم بالثبات عليه، لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله، أو المراد بالأمر بالعلم، الأمر بالازدياد منه إلى حد لا يشوبه الشك، ولا تخالطه شبهة، وهو علم اليقين، والأول أولى.

ومعنى ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أنه أنزل بعلم الله المختص به، الذي لا تطلع على كنهه العقول، ولا تستوضح معناه الأفهام، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارق لقدرات البشر ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لا شريك له، ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: ثابتون على الإسلام، مخلصون له، دائمون على الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه وبصيرة زائدة، وإن كنتم مسلمون من قبل هذا، فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم.

وفي آية التحدي من سورة الطور: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾.

الحديث: الإخبار بالحوادث، وأصل الحوادث أنها الواقعات الحديثة، ثم توسع فأطلقت على الواقعات، ولو كانت قديماً كقوله: حوادث سنة

كذا، وتبع ذلك إطلاق الحديث على الخبر مطلقاً، وتوسع فيه فأطلق على الكلام ولو لم يكن إخباراً، ومنه إطلاق الحديث على كلام النبي ﷺ.

فيجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الكلام، أي فليأتوا بكلام مثله، أي في غرض من الأغراض التي يشتمل عليها القرآن ولا سيما الأخبار، ويجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الأخبار، أي فليأتوا بأخبار مثل قصص القرآن فيكون استنزالاً لهم فإن التكلم بالأخبار أسهل على المتكلم من ابتكار الأغراض التي يتكلم فيها، فإنهم كانوا يقولون إن القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ (المطففين)، أي أخبار عن الأمم الماضين فقيل لهم: فليأتوا بأخبار مثل أخباره، لأن الإتيان بمثل ما في القرآن من المعارف والشرائع والدلائل لا قبل لعقولهم به، وقصارهم أن يفهموا ذلك إذا سمعوه.

واعلم أنه قد اختلف التحدي للكفار بمعارضة القرآن، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء)، وبعشر سور كما في هذه الآية، وذلك لأن العشرة أول عقد من العقود، وبسورة منه كما تقدم، وذلك لأن السورة أقل طائفة منه.

ولم ينجح السابقون من الكفار في معارضة هذه التحديات رغم حرصهم وسعيهم واستعانتهم باليهود والكهان لإبطال رسالة محمد ﷺ ويبقى هذا التحدي قائماً إلى يوم القيامة، ولن يستطيع المنكرون والمعارضون للحق أن يبطلوه، لأنه من عند الله – عز وجل.

فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا!

يعجب المرء من تمادي أهل الباطل في باطلهم وأصحاب الغيّ في غيّهم وأرباب المكابرة في مكابرتهم، وما ذاك إلا لقلة حكمتهم وضعف عقولهم، فالحكيم ينتبه إذا نبه، ويرجع إلى الحق إذا تبيّن، لأجل نفسه، وإلّا فلا حاجة لمن يدعونه إلى الحق في قبوله أو رفضه، ولذلك كان منطلق الأنبياء - عليهم السلام - جميعاً لأقوامهم أنهم يريدون لهم الخير، والنجاة، والفوز، هذا نوح - عليه السلام -: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ (نوح).

وقال - عليه السلام - ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ (هود).

وصالح - عليه السلام - ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٤٣ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥﴾ (الشعراء).

وجميع الأنبياء - عليهم السلام - قالوا مثل ذلك!!

إن العناد والمكابرة أسوأ خلق عند الإنسان، لذا ينبغي على العبد أن يربي نفسه، أن يرجع إلى الحق دائماً، وألّا يتمادى في الخصومة، وإلا هلك، وهذا ما حصل بين الرسول ﷺ وكفار قريش، اسمع قول الله - تعالى.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ

﴿شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ (البقرة).

عجزت قريش عن الإتيان بمثل ما جاء به النبي ﷺ فقالت: إن النبي ﷺ تقوَّله، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ (الطور). ثم أنزل تعجيزاً أبلغ من ذلك فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ (هود)، فلما عجزوا حطهم على هذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جل ذكره: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ (البقرة)، فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد، ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً، وأبلغ في الحجة وأشد تأثيراً، هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي في شك، ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني القرآن، والمراد المشركون الذين تَحدّوا، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وإنا لفي شك منه، فنزلت الآية، ووجه اتصالها بما قبلها أن الله – سبحانه – لما ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أمرٌ معناه التعجيز لأنه – تعالى – علم عجزهم عنه، والسورة واحدة السور، وهي قطعة من القرآن معينة متميزة عن أمثالها بمبدأ ونهاية، وتشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام أو أغراض عدة،

وهي مشتقة من (السّور) وهو الجدار الذي يحيط بالقرية أو الحظيرة، فإسم السورة خاص بالأجزاء المعينة من القرآن دون غيره من الكتب.

وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار من آيات القرآن، لأن من جملة وجوه الإعجاز أموراً لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لِجُمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه، فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها، وفي هذه الآية إثارة لحماسهم، إذ عرض بعدم صدقهم فتتوفر دواعيهم على المعارضة: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة)، أي فإن لم تأتوا بسورة أو أتيتم بما زعمتم أنه سورة ولم يستطع ذلك شهداؤكم على التفسيرين، فاعلموا أنكم اجترأتم على الله بتكذيب رسوله المؤيد بمعجزة القرآن فاتقوا عقابه المعد لأمثالكم.

وجيء بـ(إن) الشرطية التي الأصل فيها عدم القطع، مع أن عدم فعلهم هو الأرجح بقرينة مقام التحدي والتعجيز، لأن القصد إظهار هذا الشرط في صورة النادر مبالغة في توفير دواعيهم على المعارضة بطريق الملاينة والتحريض والمجادلة بالتي هي أحسن، حتى إذا جاء للحق وأنصف من نفسه، يرتقي معه في درجات الجدل ولذلك جاء بعده ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، كأنه يقول: ها قد أيقنت وأيقنتم أنكم لا تستطيعون الإتيان بمثله ﴿وَلَن﴾ لنفي المستقبل وتدل على النفي المؤبد غالباً، لأنه لما لم يوقّت بحد من حدود المستقبل دل على استغراق أزمنته، إذ ليس بعضها أولى من بعض.

وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ من أكبر معجزات القرآن فإنها معجزة من جهتين:

الأولى: أنها أثبتت أنهم لم يعارضوا، لأن ذلك أبعث لهم على المعارضة لو كانوا قادرين، وقد تأكدت ذلك بقوله قبل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (البقرة)، وذلك دليل العجز عن الإتيان بمثله فيدل على أنه كلام من قدرته فوق طاقة البشر.

الثانية: أنه أخبر بأنهم لا يأتون بذلك في المستقبل، فما أتى أحد منهم ولا ممن خلفهم بما يعارض القرآن، فكانت هذه الآية معجزة من نوع الإعجاز بالإخبار عن الغيب مستمرة على تعاقب السنين، فإن آيات المعارضة الكثيرة في القرآن قد قرعت بها أسماع المعاندين من العرب الذين أَبَوا تصديق الرسول ﷺ وتواترت بها الأخبار بينهم وسارت بها الركبان، بحيث لا يسع ادعاء جهلها، ودواعي المعارضة موجودة فيهم، وكانت لهم مجامع التقاول ونوادي التشاور والتعاون، وفي عامتهم وصعاليكهم وبحرصهم على حث خاصتهم لدفع مسبة الغلبة عن قبائلهم ودينهم والانتصار لآلهتهم، وإيقاف تيار دخول رجالهم في دين الإسلام، مع ما عُرف به العربي من إباءة الغلبة وكراهة الاستكانة، فما أمسك الكافة عن الإتيان بمثل القرآن إلا لعجزهم عن ذلك وذلك حجة على أنه منزّل من عند الله - تعالى - ولو عارضه واحد أو جماعة لطاروا به فرحاً، وأشاعوه وتناقلوه، فإنهم اعتادوا تناقل أقوال بلغائهم من قبل أن يغريهم التحدي، فما ظنك بهم لو ظفروا بشيء منه يدفعون به عنهم هذه الاستكانة وعدم العثور على شيء يُدّعى من ذلك يوجب اليقين بأنهم أمسكوا عن معارضته؟!

أم يقولون تقوَّله!

من الأمور التي قصّرنا فيها كثيراً تجاه كتاب الله، تدبرُ آياته، وهو أمر أنزله الله علينا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص)، هو الذكر الحكيم هو الصراط المستقيم، لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الترداد، ولا تنقضي عجائبه، وهو حبل الله المتين، لا يمل قارؤه، تحدّى اللهُ به الأولين والآخرين، والإنس والجن مجتمعين، أن يأتوا بسورة من مثله، وما استطاعوا، ولن يستطيعوا، لأنه كلام الله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، كان صاحبي يحدثنا عن تجربته في بلاد المغرب، حيث زار (مراكش) و(فاس)، واطلع على كثير من المدارس المتخصصة بتدريس القرآن الكريم.

- في بلاد المغرب يحفظون القرآن برواية ورش، وفي المشرق الرواية الأشهر هي رواية حفص، وفي هذه المدارس يحفظون القرآن بهمة ونشاط، ويتلقونه بالطريقة التقليدية، وأحياناً يكتبون على الألواح، ولفت نظري أحد المعلمين في تحفيزه للطلبة، بأن آيات الكتاب فيها من المعجزات اللغوية ما تحدّى الله به الخلق جميعاً واستشهد بآيات من سورة الطور قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ

﴿ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الطور).

أي فليأتوا بكلام مثله، ويجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الأخبار، أي فليأتوا بأخبار مثل قصص القرآن، فإنهم كانوا يقولون: إن القرآن ﴿**أساطير الأولين**﴾، أي أخبار عن الأمم الماضين، فقيل لهم: فليأتوا بأخبار مثل أخباره، لأن الإتيان بمثل ما في القرآن من المعارف والشرائع والدلائل لا قبل لعقولهم به، مثله في فصاحته وبلاغته.

ولام الأمر في ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ مستعملة في أمر التعجيز كقوله حكاية عن قول إبراهيم: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة).

وقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي في زعمهم أنه تقوّله، أي فإن لم يأتوا بكلام مثله فهم كاذبون، وهذا إلهاب لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثل القرآن ليكون عدم إتيانهم بمثله حجة على كذبهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ الآيات أدلة على أن ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان، وهذا متمثل بقوله آنفاً: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ (الطور)، لأن شبهتهم المقصود ردها بقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ (الإسراء) ونحو ذلك.

والمعنى: أن الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه إعادة الأجساد بعد

الموت والفناء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ (الإسراء)، أي يخلق أمثال أجسادهم بعد انعدامهم.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾: المعنى: أن الأمر لا هذا ولا ذاك، ولكنهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه دون حجة ولا شبهة، بل رانت المكابرة على قلوبهم.

وكلمة (عند) تستعمل كثيراً في معنى الملك والاختصاص كقوله تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ (الأنعام: ٥٩)، فالمعنى: أيملكون خزائن ربك، أي الخزائن التي يملكها ربك كما اقتضته إضافة خزائن إلى ربك، وقد عبر عن هذا باللفظ الحقيقي في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ (الإسراء).

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الطور).

إنكار لأن يكون لهم تصرف في عطاء الله تعالى ولو دون تصرف المالك، مثل تصرف الوكيل والخازن، وهو ما عبر عنه بـ ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾.

والمصيطر: يقال بالصاد والسين في أوله، اسم فاعل من صيطر بالصاد والسين، إذا حفظ وتسلط، وهو فعل مشتق من سيطر إذا قطع، ومنه الساطور، وهو حديدة يقطع بها اللحم والعظم.

هذا آخر سهم في كنانة الرد عليهم وأشد رمي لشبح كفرهم، وهو شبح الإشراك وهو أجمع ضلال تنضوي تحته الضلالات وهو إشراكهم مع الله آلهة أخرى.

فلما كان ما نعى عليهم من أول السورة ناقضاً لأقوالهم ونواياهم، وكان ما هم فيه من الشرك أعظم لم يترك عدّ ذلك عليهم مع اشتهاره بعد استيفاء الغرض المسوق له الكلام بهذه المناسبة، ولذلك كان المنتقَل إليه بمنزلة التذليل لما قبله، لأنه ارتقاء إلى الأهم في نوعه والأهم يشبه الأعم فكان كالتذييل، ونظيره في الارتقاء في كمال النوع قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ (البلد)، وقد وقع قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الحشر)، إتماماً للتذييل وتنهية المقصود من فضح حالهم.

قال الخليل: كل ما في سورة (الطور) من ذكر (أم) فكلمة استفهام وليس بعطف.

هذا خلق الله!

– من غريب تناقض أهل الكفر، أنهم كانوا يقرُون أن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمميت هو الله، والمنجي هو الله، ومع ذلك يعبدون مع الله آلهة أخرى، ويتقربون إليها، ويعظمونها، ويقدمون لها القرابين، بل ويموتون لأجلها!

– حقاً إنه منطق غريب، بل ليس من المنطق في شيء، ولكنه اتباع دين الآباء والأجداد، والإلتزام بالتعاليم والإرث الاجتماعي.

لذلك يذكِّرهم الله –عز وجل– ويلفت انتباههم إلى هذه الحقيقة في آيات كثيرة من كتابه، آيات فيها تحدٍّ، وإعجاز.

كنت وصاحبي نمشي رياضة بعد أن صلينا المغرب .

– ولو أن أحدهم صدق النية وتفكر بتجرد لما وسعه إلا أن يؤمن بالله وحده ولا سيما وهو يسمع قول الله –تعالى–: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾ (لقمان)، وقوله –سبحانه وتعالى–: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ ﴾ (النحل)، وقوله –تعالى–: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦ ﴾ (الرعد).

وغيرها من الآيات التي تحمل المعنى ذاته.

– صدقت، وذلك أنهم كانوا يفهمون أساليب القرآن البلاغية فقد نزل بلغتهم التي يتحدثون بها، وكانوا أهل فصاحة وبلاغة، ولكن استكبارهم وعنادهم حجب عنهم رؤية الحق، ومنعهم من اتباع الهدى.

معنى الآية: من كان قادراً على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع، ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾ (لقمان).

فيتعين أن يكون ﴿فَأَرُونِي﴾ تهكماً؛ لأنهم لا يمكن لهم أن ينفذوا هذا الأمر، زيادة على كون الأمر مستعملاً في التعجيز، وصوغُ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز لاقتضائها الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئا يدعون أن آلهتهم خلقته.

و﴿بَلِ﴾ للانتقال من غرض المجادلة إلى غرض تسجيل ضلالهم، أي في اعتقادهم إلهية الأصنام، كما يقال في المناظرة: دع عنك هذا وانتقل إلى كذا.

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾ فقرر ظلمهم أولاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة، ولا يهتدي إلى الحق.

– آيات بينات ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وهناك أيات كثيرة في المعنى ذاته، إليك اثنتين منها: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ (فاطر).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (الأحقاف).

ردد كل منا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، اللهم ارفع عنا البلاء والوباء وعن جميع المسلمين، عاجلاً غير آجل يا رب العالمين.

تابعنا سيرنا وحديثنا .

أفمن يخلق كمن لا يخلق؟!

القرآن هو كلام الله الذي أنزله على محمد ﷺ بواسطة جبريل على أن يبلغه الرسول ﷺ للناس كافة، باللفظ الذي أوحي به إليه للعمل به، ولقراءة ما تيسر منه في صلواتهم، وجعل قراءته عبادة، وجعله آية على صدق الرسول ﷺ في دعـواه الرسالة عن الله إلى الخلق كافّة، وتحدى منكريه خاصة، والإنس والجنس عامة، أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة، فلم يستطيعوا، وهم أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، ويبقى التحدي، قائماً على مر العصور، والدهور، ولكن المنطق يقول: إذا عجز أصحاب المعلقات، وأرباب اللغات فغيرهم لا شك أعجز!

والقرآن لا يتحدى المنكرين والمعارضين بجمال الألفاظ وبديع النظم وبلاغة الكلمات، فحسب، بل يتحداهم بالمنطق، والحجة ثم بالإهلاك والعذاب في الدنيا، ويبين مآلهم في الآخرة، وهم يعلمون أنهم آيلون إلى ذلك دون شك، ولكن لا يؤمنون!

ألم يخبر الله -عز وجل- أبا لهب (عم النبي ﷺ) أنه سيدخل النار هو وامرأته (أم جميل)، لماذا لم يؤمنا ليثبتا كذب القرآن؟! وهكذا مع كبار الكفرة، إبليس وفرعون، وقوم نوح، وقوم عاد ومن بعدهم.

- من الآيات التي تحدى بها الله -عز وجل- كل من يتخذ إلهاً مع الله، وكل من يعبد شيئاً من دون الله، قديماً ومستقبلاً قوله -عز وجل-: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل).

كانت هذه مقدمة المحاضرة التي ألقاها الأستاذ الدكتور (أبو أنس) عن

بُعدٍ، وقد تجاوز عدد المشاركين ألفي متابع، وكنت وصاحبي نتابع المحاضرة في مكتبي، بعد صلاة المغرب.

بيّن الشيخ تفسير هذه الآية قائلاً: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (النحل).

بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق ابتداء من قوله -تعالى-: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (النحل)، وثبتت المنّة وحُقّ الشكرُ، فرّع على ذلك هاتين الجملتين لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة إنكاراً على المشركين، فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق، وحين كان المراد بمن لا يخلق الأصنام كان إطلاق «من» الغالبة في العاقل مشاكلة لقوله ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾.

فالاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكر، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين، فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكر في ذلك.

لـمّا عدد الآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته، أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال: أفمن يخلق هذه المصنوعات العظيمة، ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة، كمن لا يخلق شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهو هذه الأصنام التي تعبدونها وتجعلونها شركاء لله - سبحانه؟

وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى، وما أحقهم بذلك! فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقهم؛ فتعالى الله عما يشركون، أفلا تذكرون مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرّده بالربوبية وبديع صنعته، فتستدلون بها على ذلك؟ فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر.

شرع -سبحانه- في تحقيق كون الأصنام التي أشار إليها بقوله: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ عاجزة على أن يصدر منها خلق شيء؛ فلا تستحق عبادة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله -سبحانه- صفتهم هذه الصفات المذكورة، وهي أنهم لا يخلقون شيئاً من المخلوقات أصلاً لا كبيراً ولا صغيراً، ولا جليلاً ولا حقيراً وهم يُخلقون أي: صِفَتهم أنهم يُخلقون، فكيف يتمكن المخلوق من أن يخلق غيره؟ ففي هذه الآية زيادة بيان لأنه أثبت لهم صفة النقصان بعد أن سلب عنهم صفة الكمال، بخلاف قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ فإنه اقتصر على مجرد سلب صفة الكمال.

ثم ذكر ما لأجله أصرّ الكفار على شركهم فقال: فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة للوحدانية لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير، وهم مستكبرون عن قبول الحق، متعظمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (النحل)، قال الخليل: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة تحقيق، ولا تكون إلا جواباً، أي: حقاً أن الله يعلم ما يسرون من أقوالهم وأفعالهم وما يعلنون من ذلك.

والبعث: حقيقته الإرسال من مكان آخر، ويطلق على إثارة الجاثم.

ومنه قوله: بعثتُ البعير؛ إذ أثرتَه من مبركه، وقد غلب البعث في اصطلاح القرآن على إحضار الناس إلى الحساب بعد الموت، فمن كان منهم ميتاً بعثه من جدثه.

و(أيان) اسم استفهام عن الزمان، مركبة من (أي) و(آن) بمعنى أي زمن؟ وهي معلقة لفعل ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم.

ماذا خلقوا من الأرض؟!

في تأملات (الشعراوي) لآيات القرآن لفتات جميلة.. ووقفات تجعل العاقل - وإن كان مشركاً - يتفكر ويرجع عن غيِّه.. من ذلك حواره لمن يعبد شيئاً من دون الله.. شمساً أو ناراً أو صنماً.. أو أي شيء.. يقول رحمه الله - لنفرض أن هذا الذي تعبده إله.. (أخبرنا بماذا أمرك؟ وعن ماذا نهاك؟)، هل أمرك بعبادة معينة؟ وطاعة محددة؟ والإجابة... (لا شيء) فكيف يكون إلهاً؟!

وفي هذه الآيات من سورة (فاطر) يأمر الله تعالى رسوله أن يقيم الحجة ويتحدى من أشرك به شيئاً بأن يعلنوا أن آلهتهم خلقت شيئاً... أي شيء.. في الأرض أو في السماء؟.. يقول عز وجل:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (فاطر).

في هذه الآية احتجاج على المشركين في بطلان إلهية آلهتهم بحجة أنها لا يوجد في الأرض شيء تدَّعي أنها خلقته، ولا في السماوات شيء لها فيه شرك مع الله فأمر الله رسوله ﷺ أن يحاجّهم ويوجّه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم، وذلك بعد أن نفى استحقاقها لعبادتهم بأنهم لا ترزقهم كما في أول السورة، وبعد أن أثبت الله التصرف في مظاهر الأحداث الجوية والأرضية واختلاف أحوالها من قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ (فاطر: ٩)، وذكَّرهم بخلقهم وخلق أصلهم، وقال

عقب ذلك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ (فاطر: ١٣)، عاد إلى بطلان إلهية الأصنام.

وبُنيت الحُجة على مقدّمة مشاهدة انتفاء خصائص الإلهية عن الأصنام، وهي خصوصية خلق الموجودات وانتفاء الحجة النقلية بطريقة الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ يعني: إن كنتم رأيتموهم فلا سبيل لكم إلا الإقرار بأنهم لم يخلقوا شيئاً.

أخبروني ما تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أي شيء خلقوا منها، وقوله: ﴿أَرُونِى﴾ يتحداهم ليظهر عجزهم... إذ لا يستطيعون أن يُروه شيئاً خلقته الأصنام، فيكون الأمر التعجيزي في قوة نفي أن خلقوا شيئاً ما.

وفي قوله هنا: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ تمهيداً لأن يطلب منهم الإخبار عن شيء خلقه شركاؤهم المراد من ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ انظروا ما تخبروننني به من أحوال خلقهم شيئاً من الأرض، والمراد بـ (الشركاء) من زعموهم شركاء الله في الإلهية فلذلك أُضيف الشركاء إلى ضمير المخاطَبين، أي الشركاء عندكم.

وفعل الرؤية قلبي بمعنى الإعلام والإنباء، أي أنبئوني شيئاً مخلوقاً للذين تدعون من دون الله في الأرض.

و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وهي تؤذن باستفهام بعدها. والمعنى: بل ألَهم شرك في السماوات؟؟

و(الشرك) بكسر الشين: اسم للنصيب المشترك به في ملك شيء.

والمعنى: أَلَهم شرك مع الله في ملك السموات وتصريف أحوالها كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر.

ولما قضى حق البرهان العقلي على انتفاء إلهية الذين يدعون من دون الله انتقل إلى انتفاء الحجة السمعية من الله تعالى المثبتة آلهة دون الله لأن الله أعلم بشركائه وأنداده لو كانوا، فقال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ المعنى: بل آتيناهم كتاباً فهم يتمكنون من حجة فيه تصرّح بإلهية هذه الآلهة المزعومة.

ووصف (البيّنة) بـ (منه) للدلالة علىأن المراد كون الكتاب المفروض إيتاؤه إياهم مشتملاً على حُجَّة لهم تثبت إلهية الأصنام. وليس مطلق كتاب يؤتونه أمارة من الله على أنه راض منهم بما هم عليه كدلالة المعجزات على صدق الرسول، وليست الخوارق ناطقة بأنه صادق فأُريد: أآتيناهم كتاباً ناطقاً مثل ما آتينا المسلمين القرآن.

ثم بنى على ذلك كله الإبطال بواسطة (بل) بأن ذلك كله منتفٍ وأنهم لا باعث لهم على مزاعمهم الباطلة إلا وعد بعضهم بعضاً مواعيد كاذبة يغرُّ بعضهم بها بعضاً.

والمراد بـ (الذين يعدونهم) رؤساء المشركين وقادتهم وبالموعودين عامتهم ودهماؤهم، أو أُريد أن كلا الفريقين واعد وموعود في الرؤساء وأئمة الكفر يعدون العامة نفع الأصنام وشفاعتها وتقريبها إلى الله ونصرها غروراً بالعامة والعامة تعد رؤساءها التصميم على الشرك.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً، والغرور تزيين الباطل بما يظن أنه الحق، أي خديعة.

أم خلقوا السموات والأرض؟!

- كلما قرأت الآيات التي تبيّن إيمان السحرة بين يدي فرعون، وبحضور جماهير الشعب، وفي يوم عيد ووقت ضحى، وفي لحظة قمة التحدي لإبطال دعوة موسى وإثبات زعم فرعون، أجزم أن السحرة كانوا أصدق الناس (آنذاك)، وذلك أنهم كانوا الأساتذة في السحر، ووعدهم فرعون بالمنزلة القريبة منه، وبالمال الذي يرضيهم، واجتمعوا كلهم ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ (الأعراف) ولم يمنعهم كل ذلك من السجود مباشرة تصديقاً لموسى وتعظيماً لربه، وكان بالإمكان تأجيل هذا الإعلان عن ذلك المشهد أو التمويه، أو الاعتذار بأي سبب، ولكنهم أيقنوا صدق موسى، وأن ما جاء به هو الحق، فأعلنوا إسلامهم بالسجود على مرأى من فرعون وملئه والناس أجمعين!.

- وما مناسبة ذكرك لهذا الأمر؟

كنت وصاحبي في جولة بعد صلاة العشاء فوق (جسر جابر)، نزور إخوة لنا دعونا للعشاء في (الصبية)- منطقة صحراوية بحرية جميلة في الشتاء.

- أذكر موقف السحرة كلما تذكرت عناد كفار قريش مع النبي ﷺ، وكلما سمعت من يعرض عن الإيمان بالله ويشكك في دعوة النبي ﷺ ومن يظن أن لديه حجة في عدم اتباع الهدى وإلتزام شرع الله -عز وجل-، ومن اتخذ منهجاً مخالفاً لما جاء به رسول الله ﷺ، أول شرط للوصول إلى الحق هو (الصدق)، أو (الإخلاص)، من كان يريد الحق بصدق وإخلاص، فإن الله يوفقه للوصول إليه، وهكذا حال السحرة، وحال بعض كفار قريش.

- هل لك أن تتحفنا بأمثلة من كتاب الله؟

كانت أضواء مدينة الكويت ساطعة وجميلة ونحن نعبر الجسر فوق مياه الخليج الهادئة.

- دعني أقرأ لك شيئا مما خزنته في هاتفي، لمست شاشة الهاتف واستخرجت بعض الآيات وتفسيرها.

مثلاً يقول الله -تعالى-: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾ (الطور).

في تفسير سورة الطور من (صحيح البخاري) عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ كاد قلبي أن يطير».

وكان جبير بن مطعم مشركاً قدم على النبي ﷺ في فداء أسرى بدر وأسلم يومئذ.

قوله: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ يقول: أم هم الخالقون هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله، ولا ينتهون عما نهاهم عنه؛ لأن للخالق الأمر والنهي ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، يقول: أخلقوا السماوات والأرض فيكونوا هم الخالقين، وإنما معنى ذلك: لم يخلقوا السماوات والأرض، فيكون تخصيص السماوات والأرض بالذكر لعظم خلقهما.

وإعادة حرف (أم) للتأكيد والمعنى: أم هم الخالقون للسماوات والأرض.

والاستفهام إنكاري والكلام كناية عن إثبات أن الله خالق السماوات والأرض.

والمعنى: أن الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه إعادة الأجساد بعد الموت والفناء وهذا معنى قوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ (الإسراء:٩٩)، أي أن يخلق أمثال أجسادهم بعد انعدامهم.

هم لم يُخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السماوات والأرض، فإن ذلك بيّن لهم فما إنكارهم البعث إلا ناشئ عن عدم إيقانهم في مظانّ الإيقان وهي الدلائل الدالة على إمكان البعث، وأنه ليس أغرب من إيجاد المخلوقات العظيمة، فما كان إنكارهم إياه إلا عن مكابرة وتصميم على الكفر.

والمعنى: أن الأمر لا هذا ولا ذاك، ولكنهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه دون حجة ولا شبهة، بل رانت المكابرة على قلوبهم.

أم عندهم خزائن ربك؟!

مازال الحديث مستمراً حول عناد قريش للنبي ﷺ والتشكيك في دعوته، وتوقفنا عند إنكارهم للبعث دون حجة ولا شبهة، ولقد غيّر الله الله تعالى أسلوب الإخبار في رد جحودهم إلى مخاطبة النبي ﷺ وكان الأصل الذي ركزوا عليه جحودهم توهّم أن الله لو أرسل رسولاً من البشر لكان الأحق بالرسالة رجلاً عظيماً من عظماء قومهم كما حكى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىٓ ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ (ص)، وقال -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف). يعنون مكة والطائف.

والمعنى: إبطال أن يكون لهم تصرف في شؤون الربوبية فيجعلوا الأمور على مشيئتهم، كمالكٍ في ملكه والمدبر فيما وُكّل عليه، فالاستفهام إنكاري بتنزيلهم في إبطال النبوة عمن لا يرضونه منزلة من عندهم خزائن الله يخلعون الخلع منها على من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون.

والخزائن: جمع خزينة وهي البيت، أو الصندوق الذي تخزن فيه الأقوات، أو المال وما هو نفيس عند خازنه، وتقدم عند قوله -تعالى-: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ (يوسف). وهي هنا مستعارة لما في علم الله وإرادته من إعطاء الخير للمخلوقات، ومنه اصطفاء من هيأه من الناس لتبليغ الرسالة عنه إلى البشر، وقد تقدم في سورة الأنعام: قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤). وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (القصص).

وقد سلك معهم هنا مسلك الإيجاز في الاستدلال بإحالتهم على مجمل أجمله قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ لأن المقام مقام غضب عليهم لجرأتهم على الرسول ﷺ في نفي الرسالة عنه بوقاحة من قولهم: كاهن، ومجنون، وشاعر إلخ...

فقوله -تعالى-: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ هو كقوله في سورة (ص:٨-٩): ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾، وقوله في سورة (الزخرف:٣٢): ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

وكلمة (عند) تستعمل كثيراً في معنى الملك والاختصاص كقوله -تعالى-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩)، فالمعنى: أيملكون خزائن ربك،أي الخزائن التي يملكها ربك كما اقتضته إضافة (خزائن) إلى (ربك)، وقد عبر عن هذا باللفظ الحقيقي في قوله -تعالى-: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ (الإسراء).

وهذا تحد لهم بكذبهم فلذلك اكتفى بأن يأتي بعضهم بحجة دون تكليف جميعهم بذلك، على نحو قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة:٢٣)، أي فليأت من يتعهد منهم بالاستماع بحجة.

أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون؟!

في آيات كثيرة من كتاب الله -عز وجل- يوبّخ الله المشركين، ويقيم عليهم الحجة، ويخاطب عقولهم ويتحداهم، حتى لا يملك المنصف منهم إلّا أن يرجع إلى الهدى ويترك الضلال، ولا يستمر في الشرك إلا معاند مكابر، يستحق العذاب الدائم.

بهذه المقدمة بدأ الشيخ شرحه لهذه الآيات من سورة الأعراف، وقد حرصنا على الحضور مبكراً؛ لأن العدد محدود، والمكان لا يتسع لأكثر من أربعين شخصاً، وإلتزاماً بالتباعد الجسدي الذي فرضته السلطات الصحية للسيطرة على انتشار فيروس كورونا.

تابع الشيخ حديثه.

قال -عز وجل- في سورة الأعراف: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الأعراف). هذه الآيات لتوبيخ المشركين وإقامة الحجة عليهم، وقد خوطب بها النبي ﷺ والمسلمون، للتعجب من عقول المشركين، وفيه تعريض بالرد عليهم؛ لأنه يبلغ مسامعهم، والاستفهام مستعمل في التعجب والإنكار. وصيغة المضارع في يشركون دالة على

تجدد هذا الإشراك منهم، ونفي المضارع في قوله: ما لا يخلق للدلالة على تجدد نفي الخالقية عنهم.

فيعلم منه: أنهم لا يخلقون في الاستقبال، وأنهم ما خلقوا شيئاً في الماضي؛ لأنه لو كان الخلق صفة ثابتة لهم لكان متقرراً في الماضي والحال والاستقبال. وتقديم المفعول في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ للاهتمام بنفي هذا النصر عنهم؛ لأنه أدلّ على عجز تلك الآلهة لأن من يقصر في نصر غيره لا يقصر في نصر نفسه لو قدر. والمعنى: أن الأصنام لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنصرهم ولا ينصرون أنفسهم إن رام أحد الاعتداء عليها.

والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم؛ إذ كان النصر أشدّ مرغوب لهم؛ لأن العرب كانوا أهل غارات وقتال وتراث، فالانتصار من أهم الأمور لديهم قال -تعالى-: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ (يس).

يقول -جل ثناؤه- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبّخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أيها المشركون، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وتعبدونها، شركاً منكم وكفراً بالله ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، وحاجّهم في عبادة الأصنام: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك، فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة

لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم؛ لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا أنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سُئل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضل، ومن إذا شكي إليه من شيء سمع، فضر من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر. أي هي حجارة وخشب، فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه، ثم وبّخهم الله- تعالى- وسفّه عقولهم فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

والأظهر أن المراد بالدعوة المأمور بها الدعوة للنصر والنجدة، والأمر باللام في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ ﴾ أمر تعجيز للأصنام، ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾، تأكيد لما تضمنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز؛ لأنه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقّق عجزها عن الإجابة، ووصف الأرجل بـ(يمشون) والأيدي بـ(يبطشون) والأعين بـ(يبصرون) والآذان بـ(يسمعون) إما لزيادة تسجيل العجز عليهم فيما يحتاج إليه الناصر، وإما لأن بعض تلك الأصنام كانت مجعولة على صور الآدميين مثل هبل، وذي الكفين، وكعيب في صور الرجال، ومثل سواع كان على صورة امرأة، فإذا كان لأمثال أولئك صور أرجل وأيد وأعين وآذان، فإنها عديمة العمل الذي تختص به الجوارح، فلا يطمع طامع في نصرها، وخص الأرجل والأيدي والأعين والآذان؛ لأنها آلات العلم والسعي

والدفع للنصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما علمت من أن الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة، ولم يكونوا يسألون عن سبب الاستنجاد، ولكنهم يسرعون إلى الالتحاق بالمستنجد.

وترتيب هذه الجوارح الأربع على حسب ما في الآية ملحوظ فيه أهميتها بحسب الغرض، الذي هو النصر والنجدة، فإن الرجلين تسرعان إلى الصريخ قبل التأمل، واليدين تعملان عمل النصر وهو الطعن والضرب، وأما الأعين والآذان فإنهما وسيلتان لذلك كله فأُخّرا، وإنما قدم ذكر الأعين هنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السمع على البصر كما سبق في أول سورة البقرة؛ لأن الترتيب هنا كان بطريق الترقي. ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾. إذْن من الله لرسوله بأن يتحداهم بأنهم إن استطاعوا استصرخوا أصنامهم لتتألب على الكيد للرسول ﷺ، والمعنى ادعوا شركاءكم لينصروكم (علي) فتستريحوا مني.

والأمر والنهي في قوله: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ للتعجيز.

وقوله: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ تفريع على الأمر بالكيد، أي فإذا تمكنتم من إضراري فأعجلوا ولا تؤجلوني.

وفي هذا التحدي تعريض بأنه سيبلغهم وينتصر عليهم ويستأصل آلهتهم، وقد تحداهم بأتم أحوال النصر وهي الاستنصار بأقدر الموجودات في اعتقادهم، وأن يكون الإضرار به خفياً، وألا يتلوّم له ولا ينتظر، فإذا لم يتمكنوا من ذلك كان انتفاؤه أدل على عجزهم وعجز آلهتهم.

قل لمن الأرض ومن فيها؟!

في سورة (المؤمنون) مجموعة أسئلة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتحدى بها كفار قريش، ليقيم الحجة عليهم، ويدفع باطلهم العقدي بلسان عربي مبين، عجزوا أن يردوا عليه، وما كان منهم إلا أن استسلموا للحجة، ولم يستمروا في كفرهم إلا عناداً وجحوداً وتكبراً.

كنت وصاحبي في طريقنا إلى المقبرة، لحضور جنازة والد جارنا، الذي توفي بعد يومين من دخوله العناية الفائقة نتيجة إصابتها بفيروس كورونا.

- وهل هذه الأسئلة والحجج قائمة على الكفار والمعاندين في أيامنا هذه؟

- من حيث المبدأ، فإن حجج من ينكر وجود الله، أو وحدانيته، أو البعث بعد الموت والحساب والجنة والنار، كلها حجج واحدة، متكررة على مر الزمان، والإجابة عنها، وإقامة الحجة عليهم واحدة، تكفّل الله عز وجل بها، وهو العلم الخبير، إليك مثلاً الآيات التي في سورة (المؤمنون)، عندما تقرأ تفسيرها، تجد كأنها أنزلت اليوم على كفار زماننا، وتقيم الحجة عليهم وتتحداهم، دعني اقرأ لك شيئاً من تفسير هذه الآيات، يقول الله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (المؤمنون).

هذه جملة أسئلة لإقامة الحجة ودمغ كل من أنكر البعث أو عَبَدَ مع الله شيئاً – كما كان حال كفار قريش – وهذه الأسئلة قائمة إلى يوم القيامة، لأن أسباب الشرك متكررة لا جديد فيها، فالحجة قائمة على الجميع حتى يرث الله الأرض ومن عليها، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قال يا محمد لهؤلاء المكذبين بالآخرة من قومك، لمن مُلك الأرض ومن فيها من الخلق إن كنتم تعلمون مَن مالكها؟ ثم أعلمه أنهم سيقرون بأنها لله ملكاً، دون سائر الأشياء غيره، ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، يقول: فقل لهم إذا أجابوك بذلك كذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ فتعلمون أن من قدر على خلق ذلك ابتداء، فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم وإعادتهم خلقاً سوياً بعد فنائهم؟ والتقرير هنا مراد به لازم معناه، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال معتقدهم الشركي، فلذلك لم ينتظر السائل جوابهم، وبادرهم الجواب عنه بنفسه بقوله: (لله) تبكيتاً لهم، لأن الكلام مسوق مساق إبلاغ الحجة مقدرة فيها محاورة وليس هو محاورة حقيقية، وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلم واحد، فهؤلاء القوم المقدر إلجاؤهم إلى الجواب سواء أنصفوا فأقروا حقية الجواب أم أنكروا وكابروا فقد حصل المقصود من دمغهم بالحجة وهذا أسلوب متبع في القرآن، فتارة لا يذكر جواب منهم كما هنا وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ (الرعد: ١٦)، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (الأنعام: ٩١)، وتارة يذكر ما سيجيبون به بعد ذكر السؤال منسوباً إليهم أنهم يجيبون به ثم ينتقل إلى ما يترتب عليه من توبيخ ونحوه، وابتدأ بإبطال أعظم ضلالهم وهو ضلال الإشراك وأدمج مع ضلال

إنكارهم البعث المبتدأ به السورة بعد أن انتقل من ذلك إلى الإنذار الناشئ عن تكذيبهم الرسول ﷺ ولذلك لما كان دليل الوحدانية السالف دالّاً على خلق السماوات والأرض وأحوالها بالصراحة، وعلى عبودية الموجودات التي تشملها بالالتزام، ذكر في هذه الآية تلك العبودية بالصراحة فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾، والفاء في قوله (فقل) فاء الفصيحة، أي إن قالوا ذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس)، أي يتفرع على اعترافكم بأنه الفاعل الواحد إنكار عدم التقوى عليكم، ومفعول (تتقون) محذوف، تقديره تتقونه، أي بتنزيهه عن الشريك وإنما أخبرك الله عنهم بأنهم يعترفون بأن الرازق والخالق والمدبر هو الله، لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك كما تكرر الإخبار بذلك عنهم في آيات كثيرة من القرآن، وفيه تحدٍّ لهم، فإنهم لو استطاعوا لأنكروا أن يكون ما نسب إليهم صحيحاً، ولكن خوفهم عار الكذب صرفهم عن ذلك، فلذلك قامت عليهم الحجة بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (المؤمنون).

تكرير الأمر بالقول وإن كان المقول مختلفاً دون أن تعطف جملة ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لأنها وقعت في سياق التعداد فناسب أن يعاد الأمر بالقول دون الاستغناء بحرف العطف، والمقصود وقوع هذه الأسئلة متتابعة دفعاً لهم بالحجة، ولذلك لم تعد في السؤالين الثاني والثالث جملة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ اكتفاء بالافتتاح بها. لقصد التعريض بأنهم يحترزون عن أن يقولوا، رب السماوات السبع الله، لأنهم أثبتوا مع الله أرباباً في السموات، إذ عبدوا الملائكة، فهم عدلوا عما فيه نفي الربوبية عن معبوداتهم واقتصروا

على الإقرار بأن السموات ملك لله، لأن ذلك لا يبطل أوهام شركهم من أصلها، ألا ترى أنهم يقولون في التلبية في الحج، (لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)، ففي حكاية جوابهم بهذا اللفظ تورك عليهم، ولذلك ذيل حكاية جوابهم بالإنكار عليهم انتفاء اتقائهم الله - تعالى.

ولم يأتِ مع هذا الاستفهام بشرط ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ونحوه كما جاء في سابقه، لأن انفراد الله تعالى بالربوبية في السماوات والعرش لا يشك فيه المشركون لأنهم لم يزعموا إلهية أصنامهم في السماوات والعوالم العلوية.

وخص وعظهم عقب جوابهم بالحث على تقوى الله لأنه لما تبين من الآية التي قبلها أنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله مالك الأرض ومن فيها وعقب تلك الآية بحظهم على التذكر ليظهر لهم أنهم عباد الله لا عباد الأصنام وتبين من هذه الآية أنه رب السموات وهي أعظم من الأرض وأنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بذلك ناسب حثهم على تقواه، لأنه يستحق الطاعة له وحده وأن يطيعوا رسوله فإن التقوى تتضمن طاعة ما جاء به الرسول ﷺ والملكوت مبالغة في الملك بضم الميم، فالملكوت الملك المقترن بالتصرف في مختلف الأنواع والعوالم لذلك جاء بعده (كل شيء).

ومعنى (يجير) يغيث ويمنع من يشاء من الأذى ومصدره الإجارة فيفيد معنى الغلبة، فمعنى ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ لا يستطيع أحد أن يمنع أحداً من عقابه، فيفيد معنى العزة التامة، ولما كان تصرف الله هذا خفياً يحتاج إلى تدبر العقل لإدراكه عقب الاستفهام بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾، كما

عقب الاستفهام الأول بمثله حثاً لهم على علمه والاهتداء إليه، ثم عقب بما يدل على أنهم إذا تدبروا وعلموا فقيل ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.

فـ﴿أَنَّىٰ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (من أين) كما تقدم في سورة آل عمران (٣٧) ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ والاستفهام تعجبي و(السحر) مستعار لترويج الباطل بجامع تخيل ما ليس بواقع حقاً، والمعنى: فمن أين اختل شعوركم فراج عليكم الباطل، فالمراد بالسحر ترويج أئمة الكفر عليهم الباطل حتى جعلوهم كالمسحورين.

من بيده ملكوت كل شيء؟!

آيات كثيرة في كتاب الله ترِدُ بصيغة أسئلة، وهو أسلوب الاستفهام التنويري، بمعنى أن الإجابة معروفة ولا يمكن لأحد أن ينكرها، فالجواب (لا إله إلا الله)، سواء نطق بها الجاحد أو أنكرها.

– ذكرتني بالآية الستين وأربع آيات بعدها من سورة النمل، تنتهي بقوله –عز وجل–، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا ؟﴾ (النمل: ٦٢)، فينطق الكون كله (لا إله إلا الله)، يفقه ذلك من يفقهه ولا يجحده إلا معاند.

– أحسنت، نعم هذا الأسلوب يتكرر في كتاب الله، يتحدى الكافرين والجاحدين والمعاندين والمكابرين، ويقيم عليهم الحجة، في الدنيا، فإن تمادوا في غيِّهم، لم يكن لهم عذر إذا وقفوا بين يدي الله يوم القيامة.

صاحبي من أهل القرآن (أهل الله وخاصته) كما قال رسول الله ﷺ (صحيح الجامع)، أحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا.

كنا في مجلس علم بين العشائين في مكتبة المسجد، وصاحبي لا يغادر المسجد في هذا الوقت، منذ عرفته، شاركنا مؤذننا الجديد (الشيخ هاني) وأحد رواد المسجد من الذين يتدارسون القرآن في برنامج (الأترجة) لحفظ كتاب الله.

– ومن هذه الآيات قوله –سبحانه–:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ

﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المؤمنون).

وفي تفسير هذه الآيات ورد ما يلي:

الاستفهام تقريري، أي أجيبوا عن هذا، ولا يسعهم إلا الجواب بقولهم: (لله)، والمقصود: إثبات لازم جوابهم وهو انفراده -تعالى- بالوحدانية. وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتأملوا فيظهر لهم أن الأرض لله، وأن من فيها لله فإن كون جميع ذلك لله قد يخفى؛ لأن الناس اعتادوا نسبة المسببات إلى أسبابها المقارنة والتصرفات إلى مباشريها فنُبّهوا بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى التأمل، أي إن كنتم تعلمون علم اليقين، ولذلك عقب بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾، أي يجيبون عقب التأمل جواباً غير بطيء.

وخص بالتذكير لما في بعضه من خفاء الدلالة والاحتياج إلى النظر، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ تكرير الأمر بالقول وإن كان المقول مختلفاً والمقصود وقوع هذه الأسئلة متتابعة دفعاً لهم بالحجة، ولذلك لم تعد في السؤالين الثاني والثالث جملة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (المؤمنون)، اكتفاء بالافتتاح بها.

وصيغت هذه الآية لقصد التعريض بأنهم يحترزون عن أن يقولوا: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾، لأنهم أثبتوا مع الله أرباباً في السماوات؛ إذ عبدوا الملائكة، فهم عدلوا عما فيه نفي الربوبية عن معبوداتهم، واقتصروا

على الإقرار بأن السماوات ملك لله؛ لأن ذلك لا يبطل أوهام شركهم من أصلها، ألا ترى أنهم يقولون في التلبية في الحج «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، ولذلك ذيل حكاية جوابهم بالإنكار عليهم انتفاء اتقائهم الله -تعالى-، ولم يؤت مع هذا الاستفهام بشرط ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (المؤمنون)، ونحوه كما جاء في سابقه؛ لأن انفراد الله -تعالى- بالربوبية في السماوات والعرش لا يشك فيه المشركون؛ لأنهم لم يزعموا إلهية أصنامهم في السماوات والعوالم العلوية.

وخص وعظهم عقب جوابهم بالحث على تقوى الله؛ لأنه لما تبيّن من الآية التي قبلها أنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله مالك الأرض ومن فيها، وعقبت تلك الآية بحضهم على التذكر ليظهر لهم أنهم عباد الله لا عباد الأصنام، وتبيّن من هذه الآية أنه رب السماوات وهي أعظم من الأرض، وأنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بذلك ناسب حثهم على تقواه؛ لأنه يستحق الطاعة له وحده وأن يطيعوا رسوله فإن التقوى تتضمن طاعة ما جاء به الرسول ﷺ. ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾. الملكوت: مبالغة في الملك، فالملكوت: الملك المقترن بالتصرف في مختلف الأنواع والعوالم لذلك جاء بعده كل شيء. واليد: القدرة وهو إثبات لصفة (اليد) لله -عز وجل- كما يليق بجلاله -سبحانه-، ومعنى (يجير) يغيث ويمنع من يشاء من الأذى، ومصدره الإجارة، فيفيد معنى الغلبة، فمعنى (لا يجار عليه) لا يستطيع أحد أن يمنع أحداً من عقابه. فيفيد معنى العزة التامة، وبنى فعل (يجار عليه) للمجهول لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل فيفيد العموم مع الاختصار.

ولما كان تصرف الله هذا خفياً يحتاج إلى تدبر العقل لإدراكه عقب الاستفهام بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ كما عقب الاستفهام الأول بمثله حثاً لهم على علمه والاهتداء إليه.

و﴿أَنَّىٰ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (من أين) كما تقدم سورة آل عمران الآية ٣٧، ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ والاستفهام تعجيبي، والسحر مستعار لترويج الباطل بجامع تخيل ما ليس بواقع واقعاً، والمعنى: فمن أين اختل شعوركم فراج عليكم الباطل؟ فالمراد بالسحر ترويج زعماء الكفر عليهم الباطل حتى جعلوهم كالمسحورين.

في كتاب الله -عز وجل- الخير لمن أراد الهداية، ويبقى كتاب الله الحجة القائمة على جميع الخلق إلى يوم القيامة، أحد المعجزات التي أيد بها الله نبيه، فهو أعظم آية، لخير الأنبياء، ولكن ينبغي على العبد أن يبحث عن الهداية صادقاً مخلصاً وإلا ما انتفع بكتاب الله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ (فصلت).

إلهكم إله واحد!

كلمة عظيمة، خلقت لأجلها السماوات والأرض: (لا إله إلا الله)، بعث الله لأجلها الرسل وأنزل الكتب، وجعل جزاء من آمن بها مخلصاً الجنة، وجزاء من أنكرها النار.

سورة النحل، سورة النَّعم، ذكر الله فيها كثيراً من نعمه على خلقه، ولكن يغفل الناس أن أعظم نعمةٍ ذكرت في هذه السورة هي نعمة (التوحيد)، في آية واضحة بينة ثابتة، إعلان إلهي، من لم يره فهو (الأعمى)، يقول -عز وجل-: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (النحل). ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ (النحل).

في تفسير هاتين الآيتين: قد ثبت بما تقدم من الآيات إبطال إلهية غير الله، فثبت أن لكم إلهاً واحداً لا شريك له، ولكون ما مضى كافياً في إبطال إنكارهم الوحدانية، خلت الجملة من المؤكد تنزيلاً لحال المشركين بعد ما سمعوا من الأدلة منزلة، من لا يُظنُّ به أنه يتردد في ذلك بخلاف قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ (الصافات) في سورة الصافات؛ لأن ذلك ابتداء كلام لم يتقدمه دليل، كما أن قوله -تعالى-: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ في سورة البقرة (١٦٣) خطاب لأهل الكتاب.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، أي يتفرع على هذه القضية القاطعة أن قلوبكم منكرة وأنتم مستكبرون، وأن ذلك

ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة، والتعبير عن المشركين بـ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنهم قد عرفوا واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين، وعبّر بالجملة الاسمية ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعد ما تبيّن من الأدلة، وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجيّة وتمكن من نفوسهم؛ من حيث أنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصر في العواقب.

وكذلك جملة ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ بُنيت على الاسمية لدلالة على تمكن الاستكبار منهم. و(الجَرَم) بالتحريك-: أصله البدّ، وكثر في الاستعمال حتى صار بمعنى (حقاً)، والتقدير: (لا جرم) في أن الله يعلم، أي لابد من أنه يعلم، أي لا شك في ذلك.

وجملة (أن الله يعلم) كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار، وغيرهما مؤاخذة عقاب وانتقام؛ فلذلك عقب بجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ (النحل).

وفي قوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ (النحل)، قال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكاً أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ يقول: فخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً.

لما أشبع القول في إبطال تعدد الآلهة الشائع في جميع قبائل العرب، نقل الكلام إلى إبطال نوع آخر من الشرك متبع عند قبائل من العرب وهو الإشراك بإلهية أصلين للخير والشر، تقلدته بعض قبائل العرب المجاورة للفرس الذين يعتقدون وجود إلهين، إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة. قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، عطف قصة على قصة وهو مرتبط بجملة: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ (النحل:٣٦).

وصيغة التثنية من قوله: إلهين أكدت بلفظ (اثنين) للدلالة على أن الاثنينية مقصودة بالنهي إبطالاً لشرك مخصوص من إشراك المشركين، والمقصود النهي عن التعدد الخاص؛ وإذ نهوا عن اتخاذ إلهين فقد دلّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة. والضمير من قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله: (وقال الله)، أي قال الله ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، والقصر في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، قصر موصوف، على صفة، أي (الله مختص بصفة توحد الإلهية)، فقد دل بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة؛ لأن الله واحد، فاتخاذ إلهين اثنين قلب لحقيقة الإلهية.

وتفرع على ذلك قوله -تعالى-: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ بصيغة القصر، أي قصر الرهبة التامة منه عليه فلا اعتداد بقدرة غيره على ضرّ أحد.

والاقتصار على الأمر بالرهبة وقصرها على كونها من الله يفهم منه الأمر بقصر الرغبة عليه، ووقع في ضمير (فإياي) إلتفات من الغيبة إلى

التكلم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنه الله منزلُ القرآن تحقيقاً لتقرير العقيدة الأصلية.

وفي هذا الإلتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من فهم المخاطبين، واقتران الفعل (بالفاء) يفيد مفاد التأكيد فيكون التقدير، فإياي فارهبون، أي أمرتكم بأن تقصروا رهبتكم علي فارهبون امتثالاً للأمر.

أإله مع الله؟

قرأ إمامنا في صلاة العشاء من سورة النمل ابتداء من قوله -تعالى-: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وانتهى بقراءة: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

خرجتُ وصاحبي بعد الصلاة، نريد زيارة أخ لنا في ديوانه.

- لا يملك أحد يسمع هذه الآيات إلا أن يقول: «لا إله إلا الله»، وقد ورد قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، وتكرر هذا السؤال التوبيخي لمن يشرك بالله، خمس مرات في هذه الآيات من سورة النمل.

- ورد في بعض كتب التفسير أن الرسول ﷺ كان يقول: «بل الله خير وأبقى وأجلّ وأكرم».

- نعم هذه الآيات تخاطب الذهن والقلب والروح، ويتحدّى فيها الله -عز وجل- كل من يشرك به، ويعبد إلهاً غير الله، أو مع الله، ولا يفرد الله بالعبادة.

يتحداهم الله في هذه الايات، بأنه -سبحانه- خلق السموات والأرض، ولا يمكن لأحد أن يزعم أنه خلقهما، كما أنه -سبحانه- ينزل المطر من السماء متى شاء، حيث شاء وبمقدار، ولا يمكن لأحد أن يزعم أنه يفعل ذلك، وأنه -سبحانه- جعل الأرض مستقراً لخلقه وهيأها بما يضمن صلاحها للعيش.

قاطعني.

- ينبغي أن يتدبر المرء خاتمة كل آية، ليكتمل المعنى، ففي الآية الأولى يقول -سبحانه-: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (النمل)، (بل) هنا تعني (لكن)، فهو استدراك، بأن ثبت ألّا أحد يفعل شيئاً مما ذكره الله في هذه الآية، فإعراضهم ليس إلّا مكابرة؛ حيث يجعلون لله عدلاً ومثيلاً، مع أنه عاجز عن كل ما ذكره في الآية، وفي الآية الثانية ذكر الله أحوال الأرض والأنهار والجبال والفاصل بين العذْب والأُجاج، وهذه تحتاج إلى تدبر وعلم؛ فقال -سبحانه-: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾، وفي الآية الثالثة ذكر حال الإنسان عند ضعفه وقلة حيلته، وهذا مشاهد معروف عند الجميع، فإنه إذا انقطعت به الأسباب يلجأ لربه الذي في السماء، وختمها بقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾؛ لأن غالب البشر ينسى اضطراره إذا انكشفت مصيبته.

وهكذا تستمر الآيات في بيان انفراد الله -عز وجل- ونفي الشريك عنه بالأدلة العقلية والكونية والنفسية، ثم يتحداهم الله -عز وجل- بقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل).

وجاء في تفسير هذه الآيات:

أمر رسولَ الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته.

وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ومعناه الخبر.

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ أي ما كان للبشر، ولا يتهيأ لهم تحت قدرتهم، أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عجزة عن مثلها؛ لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، المضطر: اسم مفعول من الاضطرار: وهو المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة؛ فالمظلوم مضطرّ، ويقرب منه المسافر، وكذلك دعوة الوالد على ولده،لا تصدر منه مع ما يعلم من رحمته به وشفقته عليه ، إلا عند تكامل عجزه عنه، وصدق ضرورته، وإياسه عن برّ ولده، مع وجود أذيته، فيسرع الحق إلى إجابته.

والوجه في إجابة المضطر، أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، وقطع النظر عما سوى الله، وقد أخبر الله -سبحانه- بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين، وإن كانوا كافرين؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يونس)، وقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (العنكبوت) فأجابهم عند ضرورتهم، وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يقرّون أنه الخالق الرازق؛ فألزمهم الإعادة، أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد: ﴿قُلْ هَاتُواْ

﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم أن لي شريكا،أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وجملة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استئناف، أي كالنتيجة للجملة قبلها؛ لأن إثبات الخلق والرزق والإنعام لله -تعالى- بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به؛ فينتج أنه لا إله معه.

- كلام جميل، ولا يسع أي عاقل منصف إلا أن يقول: «لا إله إلا الله» مع كل آية من هذه الآيات، ولا يشرك بالله إلا معاند، جاحد، مبغض للحق؛ لأن هذا التحدي، كان منذ خلق الله السموات والأرض، وتلاه الرسول ﷺ منذ أنزل القرآن، وهو قائم إلى يوم القيامة، فمن أراد الحق يهديه الله، وهذا معنى قوله -سبحانه-: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النحل).

أإله مع الله؟

هذا هو السؤال الواضح البيِّن الذي يطرحه الله -سبحانه وتعالى- متحدياً كلّ من يشرك به، والجواب لهذا السؤال، سواء نطق المسؤول أم صمت: (لا إله إلا الله)، وعلى شاكلة قول الإعرابي: «من الذي أغضب الرب حتى يقسم؟»، في قوله -تعالى-: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الذاريات)، نقول هنا: من الذي أغضب الله بأن أشرك به حتى يكرر خمس مرات ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ من سورة النمل:

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

- لا إله إلا الله، يعجب المرء كيف يجرؤ بشر أن يعبد مع الله غيره؟! في الدعاء أو الرجاء أو الخوف أو النذر أو الحلف أو الشفاعة أو المغفرة، ورب العزة يقول: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، لا يملك النفع والضر إلا هو -سبحانه-، ولا يملك الرزق والموت إلا هو -سبحانه-، ولا يملك الجنة والنار إلا هو -سبحانه.

فلا ينبغي لمنصف، عاقل، إلا أن يوحِّد الله ولا يشرك به، لا مَلكاً مقرباً،

ولا نبياً مرسلاً، ولا ولياً صالحاً، ولا سيداً مطاعاً، ولا صنماً معظماً، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

كنت وصاحبي بانتظار ثالثنا، يصلي فروضه في مسجد آخر، لنعود أخاً لنا في المشفى.

- إنها آيات قوية، وحجج دامغة، وأسلوب تحدّ واضح، لمن يشرك مع الله شيئاً آخر، ماذا لديك بالنسبة لإعجاز هذه الآيات؟

- دعنا نقرأ الآيات كاملة ثم نأتي على التفسير.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل).

- في الآية الأولى يبين الله -عز وجل- عجز (الآلهة) عن أمور واضحة، أقر بها من اتخذ إلهاً مع الله، فإن خلق السماوات والأرض لم يدَّعِهْ أحدٌ، وعندما قال الله -عز وجل- إنه هو -سبحانه- من خلق

السماوات والأرض لم يعارضه أحد، وهكذا بالنسبة لإنزال المطر، لا يملكه أحد، فهذه أمور مشاهدة معلومة ملموسة، ينتفع بها الخلق ويترقبونها، ويعلمون أنها ليست من تصاريف (آلهتهم)، فلا سبب أن يشركوا بالله غيره إلا أنهم ﴿هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾، أي يجعلون من لا يملك شيئاً مثل من يملك كل شيء، أو يعدلون عن الله إلى غيره، وكلا السببين لا أساس له، من عقل منصف أو فطرة سليمة، فلا عذر لمن يفعل ذلك.

وصل صاحبنا، أخذنا مجلسينا في مركبته وانطلقنا إلى غايتنا.

بعد التحية والسؤال وبيان مختصر نقاشنا لصاحبنا تابعنا الحديث: بيّن الله أموراً أرضية مشاهدة وملموسة للبشر، لا يملك أحدٌ فيها شيئاً، ولم يدّع أحد أنه عمل منها شيئاً، بل الله نسبها لنفسه -سبحانه-، وهي استقرار الأرض بالجبال، وجريان الأنهار، وحجر المياه العذبة عن المالحة، وهذا كله مشاهد للجميع، فمن أنكر نسبتها إلى الله، فهو جاحد، منكر، يعلم، ولكن لا يتصرف وفق علمه، ولا يستفيد من علمه، كمن يبصر ولا يستفيد من بصره، ويسمع ولا يستفيد من سمعه، فهو كمن لا يعلم ولا يبصر ولا يسمع.

والثالثة أن الخلق جميعهم -حال الاضطرار والضعف والاستسلام- لا تتجه قلوبهم إلّا إلى السماء، مؤمنهم وكافرهم، وهذا معلوم ومشاهد بل أقرّ به من كان يعبد الأصنام، عندما سئل عن عدد الآلهة التي يعبدها، قال سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء، فقيل له: «فمن الذي ترجو لنفعك وضرك»، قال: «الذي في السماء»، وحتى يومنا هذا وإلى يوم القيامة لا يرجو الخلق حال الاضطرار إلا الذي في السماء.

ولكن الجاحد لا يذكر ذلك إلا حال وقوعه فيه.

وفي النهاية، يتحدى الله -عز وجل- كل من يشرك به شيئا، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾، هاتوا برهانكم وأدلتكم، على أن أحداً غير الله يملك الموت والحياة، أو يملك الرزق، أو يملك الضر والنفع المطلق، أو يملك النعيم والعذاب، لا أحد يملك برهاناً ولا دليلاً، فتقوم الحجة على الجميع، فلا ينبغي أن يقولوا إلا «لا إله إلا الله»، بألسنتهم وقلوبهم، وينبغي أن يظهر كل ذلك في عبادتهم وأعمالهم وإلا فإنهم ملاقو الله، ومحاسبهم على شركهم ومعذبهم عذاباً شديداً على جحودهم.

من إله غير الله؟!

– كنّا ثلاثة نفر في طريقنا لمركباتنا بعد أن أدينا صلاة عشاء يوم الأحد...

لنرجع إلى الآيات التي قرأها إمامنا في صلاة العشاء، من أي سورة قرأ؟

– من سورة القصص، ولا ينبغي لمن يسمع المرء هذه الآيات إلا أن يقول (لا إله إلا الله)، دعني أقرأ لك تفسيرها لنتدبر معانيها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (القصص).

هذه آيات لإقامة الحجة على وحدانية الله –سبحانه– بلفت النظر إلى قدرته وبديع صنعه، وفي ضمن هذا الاستدلال امتنانٌ على الناس بالنعم وتعريضٌ بكفر المشركين نعمه، واختير للاستدلال على وحدانية الله، هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين، الذي يستوي في إدراكه كلُّ مميز، وهو أجلى مظاهر التغيّر في هذا العالم، فهو دليل الحدوث وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم حتى الأصنام فهي تظلم وتسودّ أجسامها بظلام الليل وتشرق وتضيء بضياء النهار، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين

أحدهما لو كان دائماً؛ لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما يغطي الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما، ولأن النعمة بتعاقبهما دوماً أشد من الإنعام بأفضلهما وأنفعهما؛ لأنه لو كان دائماً لكان مسؤوماً، ولحصلت منه طائفة من المنافع، وفقدت منافع ضده؛ فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلاً إلى ما هو دون، و(السرمد): الدائم الذي لا ينقطع. والرؤية قلبية والاستفهام في (أرأيتم) تقرير، والاستفهام في ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ إنكاري وهم معترفون بهذا الانتفاء وأن خالق الليل والنهار هو الله -تعالى- لا غيره. والمراد في قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إحاطة أزمنة الدنيا وليس المراد انتهاء جعله سرمداً.

والضياء: النور. وهو في هذا العالم من شعاع الشمس قال -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ (يس: ٥) وعبّر بالضياء دون النهار؛ لأن ظلمة الليل قد تخف قليلاً بنور القمر فكان ذكر الضياء إيماء إلى ذلك.

وإذ قد استمر المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدليل وقد علموا أن الأصنام لا تقدر على إيجاد الضياء، جعلوا كأنهم لا يسمعون هذه الآيات التي أقامت الحجة الواضحة على فساد معتقدهم، ففرع على تلك الحجة الاستفهام الإنكاري عن انتفاء سماعهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي أفلا تسمعون الكلام المشتمل على التذكير بأن الله هو خالق الظلمة والضياء؟ وكرر الأمر؛ لأنه مقام توبيخ وتهويل.

ووصف الليل بـ(تسكنون فيه) ولم يصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

ووردت مثل هذه الآيات في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنعام)، وكما في الآيات السابقة على هذه الآية احتجاج على الكفار وتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم، ووحّد السمع (سمعكم)؛ لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر؛ ولهذا جمعه (أبصاركم) والأبصار جمع بصر، وهو في اللغة العين على التحقيق، وقيل: يطلق البصر على حاسة الإبصار وذلك جمع ليعم بالإضافة جميع أبصار المخاطبين، ولعل إفراد السمع وجمع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفة أحد اللفظين مفرداً والآخر مجموعاً عند اقترانهما، كما ورد في مواضع أخرى في القرآن: قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ (الأحقاف:٢٦).

والختم: الطبع... **والأخذ**: انتزاع الشيء وتناوله من مقره.

لأن الله هو معطي السمع والبصر فإذا أزالها كانت تلك الإزالة كحالة أخذ ما كان أعطاه، والقلوب مراد بها العقول في كلام العرب؛ لأن القلب سبب إمداد العقل بقوة الإدراك.

وقوله: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ﴾ أي أعلمتم جواب هذا الاستفهام أم أنتم في شك؟ وهو استفهام مستعمل في التقرير يقصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه، فيوقنوا أنه لا إله غير الله يأتيهم بذلك؛ لأنه الخالق للسمع والأبصار والعقول فإنهم لا ينكرون أن الأصنام لا تخلق، ولذلك قال لهم

القرآن: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)، (وغير الله) صفة (إله)، و(ويأتيكم) جملة في محل الصفة أيضاً، والمستفهم عنه هو (إله)، أي ليس إله غير الله يأتي بذلك، فدل على الوحدانية، ومعنى يأتيكم به يرجعه.

هذه الآيات ومثيلاتها تتحدى المشركين وتقيم الحجة عليهم وتوبخهم وتهددهم ومع ذلك يستمرون في عنادهم وكفرهم؛ لذلك لن تكون لهم حجة إذا وقفوا بين يدي الله -عز وجل.

لو كان فيهما آلهة إلا الله!!

- لا شك أن قضية التوحيد وهي إفراد لله -سبحانه- بالعبادة، هي القضية الكبرى وأساس قيام السماوات والأرض، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، لإقامة (لا إله إلا الله)، وهي دعوة الأنبياء جميعهم، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ (الأنبياء)، واقتصر على (من قبلك)؛ لأنه لا نبي بعد محمد ﷺ، فهذه الآية تشمل الأنبياء جميعهم، منذ أُهبط آدم إلى الأرض.

لم نعقد أي مجلس علمي منذ جائحة كورونا التي انتشرت في الأرض منذ (يناير ٢٠٢٠)، وكانت لقاءاتنا عبر البث المرئي، تقنية لم نعتد عليها، لها فوائد وقصور. بدأنا نلتقي مع بداية (٢٠٢١) في مجموعات صغيرة، مع الإلتزام بالتباعد الجسدي، ولبس الكمام، وكان أول لقاء لنا في ديوان أحد الإخوة من رواد مسجد (صباح السالم)؛ حيث دار حوارنا عن التوحيد.

- آيات القرآن أقامت الحجج والبراهين، لإثبات قضية التوحيد، وكذلك تحدّت من أنكر هذه القضية وأعجزته، وفي النهاية توعد الله من أعتدى على دعاة التوحيد من الرسل والصالحين، بل أنفذ وعيده في كثير من الأمم السابقة. ومن هذه الآيات في سورة الأنبياء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ (الأنبياء).

وصف الآلهة بأنها من الأرض تَهَكُّماً بالمشركين، وإظهاراً لسفه رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض، أو مأخوذة من أجزاء الأرض من حجارة أو خشب، تعريضاً بأن ما كان مثل ذلك لا يستحق أن يكون معبوداً، كما قال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (الصافات)! (الصافات:٩٥). وجملة (هم ينشرون) صفة لآلهة. والمراد: نشر الأموات، أي بعثهم. وبذلك يتبين أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله؛ لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله هو خالق السماوات والأرض، قال -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (الزمر:٣٨)، وقال -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ (الزخرف)، فهي مسوقة لإثبات الوحدانية، لا لإثبات وجود الصانع؛ إذ لا نزاع في ذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.

(لفسدتا) الفساد: هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء، ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتظمتين، بأن يبطل الانتفاع بما فيهما، فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة، ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك يكون ببطلان نظامه الصالح. وضمير المثنّى عائدٌ إلى السماوات والأرض، من قوله -تعالى-: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنبياء:١٩)، أي لو كان في السماوات والأرض آلهة أخرى ولم يكن

جميع من فيها ملكاً لله وعباداً له لفسدت السماوات والأرض، واختل نظامهما الذي خلقتا به.

وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين؛ إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي أنه بعد أن خلق السماوات والأرض أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يُلبّون في الحج: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك»، وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر، بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء. ووجه اتساق هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة، للزم أن يكون كل إله متصفاً بصفات الإلهية المعروفة آثارها، وهي الإرادة المطلقة، والقدرة التامة على التصرف، كما قال -تعالى-: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون). فلا عجب أن تكون مشاهدة دوام السماوات والأرض بانتظامهما البديع عبر مختلف العصور والأحوال، دليل على أن إلهها واحد غير متعدد.

قوله -تعالى-: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعاد التعجب في اتخاذ الآلهة من دون الله مبالغة في التوبيخ، أي صفتهم كما تقدم في الإنشاء والإحياء، فتكون «أم» بمعنى (هل) على ما تقدم، فليأتوا بالبرهان على ذلك، وقيل: الأول احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال: «هم ينشرون» ويحيون الموتى، هيهات! والثاني احتجاج بالمنقول، أي هاتوا برهانكم من هذه الجهة، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن، أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟ ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ﴾ بإخلاص التوحيد في القرآن (وذكر

من قبلي) في التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب، فانظروا، هل في كتاب من هذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهة سواه؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت في الأوامر والنواهي.

وفي كتاب الله آيات كثيرة تبين أن الأصنام التي تعبد من دون الله، لا ينبغي أن تتخذ آلهة؛ لعجزها عن دفع الضرر عن أنفسها فضلاً عن جلب النفع أو عمل شيء لغيرها، مثلاً قول الله -عز وجل- عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ (الشعراء).

وقوله -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ (الأعراف).

وقوله -عز من قائل-: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ (الأنبياء).

ويوم يقول نادوا شركائي!

لا شك أن أعظم ذنب هو (الشرك بالله): أن يعبد مع الله إلها آخر، فيُدعى، ويُرجى، ويُخشى، ويُتقرب إليه، ويُنذر له، رجاءَ نفعه وخشية ضره، الشرك يحرمُ العبد الجنة مطلقاً، ويخلده في النار أبداً، هو الذنب الذي يغضب الله لأجله غضباً لا يغضب لذنب غيره، ولا يغفره، ولا يرحم من يرتكبه.

- أراك تؤكد في كل مجلس أهمية التوحيد وخطورة الشرك.

- بل أردد كلام الأنبياء جميعاً: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ (هود: ٨٤)، هذا الذنب يوجب الخزي على العبد في الدنيا والآخرة، قبل أن يؤمر بالمشركين إلى النار، يخزيهم الله -عز وجل-، كما قال -سبحانه-: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦﴾ (الصافات)، وفي زيادة توبيخ لهم يطالَبون أن (ينادوا شركاءهم)، ويستعينوا بهم، قبل دخول النار، وبعد أن يدخلوها، يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً.

كنت وصاحبي نأخذ استراحة قصيرة قبل صلاة المغرب بعد أن رتبنا مكتبة المسجد، مع أنني لا أتفق معه على أهمية الكتب المطبوعة هذه الأيام، ولاسيما بعد تسهيل عملية تحميل الكتب والمكتبات وسهولة البحث باستخدام الحاسوب.

- إليك بعض هذه الآيات التي فيها توبيخ للمشركين يوم القيامة:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (النحل). ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ (الكهف). ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنعام).

وفي التفسير: السؤال بـ(أين) هنا عن الشركاء المزعومين وهم حاضرون كما دلت عليه آيات أخرى، قال -تعالى-: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (الصافات)، أن تظهر مذلة الأصنام وعدم جدواها كما يحشر الغالب أسرى قبيلة ومعهم من كانوا ينتصرون به؛ لأنهم لو كانوا غائبين لظنوا أنهم لو حضروا لشفعوا، أو أنهم شغلوا عنهم بما هم فيه من الجلالة والنعيم، فإن الأسرى كانوا يأملون حضور شفعائهم أو من يفاديهم.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ سؤال إفضاح لا إفصاح. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي في أنهم شفعاء كلهم عند الله بزعمكم، وأنهم تقربكم منه زلفى، وهذا توبيخ لهم. وإضافة الشركاء إلى ضمير المخاطبين؛ لأنهم الذين ادعوا لهم الشركة.

والدعاء: دعاء الاستغاثة بحسب زعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله في الدنيا. وقوله (فلم يستجيبوا لهم) هو محل التيئيس المقصود من الكلام.

قوله -تعالى-: ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة الاختبار أي لم يكن جوابهم

حين اختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدواعي. ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾، تبرؤوا من الشرك وانتفوا منه، لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين، قال ابن عباس: يغفر الله -تعالى- لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله -تعالى- أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كان يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ (النساء).

قوله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (القصص) أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فيدعون الأصنام فلا يستجيبون فتظهر حيرتهم، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون، وهو توبيخ وزيادة خزي. ولما كان المقام هنا مقام تهكمُ كان الاستفهام عن المكان مستعملاً في التهكم ليظهر لهم كالطماعية للبحث عن آلهتهم، وهم علموا ألّا وجود لها ولا مكان لحلولهم. وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة (شركائي) جرياً على ما يعتقده المشركون، تعالى الله عن ذلك وهو زيادة في التوبيخ؛ لأن مظهر عظمة الله -تعالى- يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك، فالمخاطبون عالمون حينئذ بتعذر المشاركة.

والآية نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك

لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، (فدعوهم) أي : فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء، (فلم يستجيبوا لهم) إذ ذاك، أي: لم يقع منهم مجرد الاستجابة لهم، فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ (الكهف) أي: جعلنا بين هؤلاء المشركين وبين من جعلوهم شركاء لله موبقاً، ذكر جماعة من المفسرين أنه اسم واد عميق، فرق الله به -تعالى- بينهم، وعلى هذا فهو اسم مكان، قال ابن الأعرابي، كل حاجز بين شيئين فهو موبق، وقال الفراء: الموبق: المهلك. والمعنى: جعلنا تواصلهم في الدنيا مهلكاً لهم في الآخرة. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ (فصلت) والضمير في (ينادي) عائد إلى ربك في قوله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ (فصلت)، والنداء كناية عن الخطاب العلني كقوله: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ﴾ (الحديد:١٤).

و(آذناك) أخبرناك وأعلمناك، وأصل هذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الأُذن بضم الهمزة وسكون الذال وقال -تعالى-: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ﴾ (الأنبياء:١٠٩) و(الشهيد) بمعنى المشاهد، أي المبصر، أي ما أحد منا يرى الذين كنا ندعوهم شركاءك الآن، أي لا نرى واحداً من الأصنام التي كنا نعبدها ويجوز أن يكون (الشهيد) بمعنى الشاهد، أي ما منا أحد يشهد أنهم شركاؤك، فيكون ذلك اعترافاً بكذبهم فيما مضى؛ لذلك يجب على الموحد أن يعرف قدر هذه النعمة العظيمة التي وفقه الله إليها ويشكر الله عليها، ويسأله -سبحانه- أن يحفظها ويديمها ولا يموت إلا عليها.

قوله - سبحانه: ﴿أين شركائي﴾

- لا شك أن أهوال القيامة عظيمة، وبعضها أكثر هولاً من بعض، ولا أمان لأحد في ذلك الموقف إلا من أمّنه الله - عز وجل.

- وإذا أردنا أن نجتهد لنعرف أكثرها وأعظمها هولاً: ما يتعلق بالجبار، فهو الأعظم، غضبه - سبحانه - ، كلامه - سبحانه - ، نداؤه - عز وجل - ، ففي الحديث، (حديث الشفاعة عندما يذهب الناس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى - عليهم السلام - جميعاً، كلهم يقولون: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله» صحيح الجامع - نداؤه - سبحانه - ، «**أنا الملك، أنا الجبار، أين ملوك الأرض**» (متفق عليه)، ونداؤه - عز وجل - للمشركين:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (النحل)، وكذلك: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ (فصلت)، واسمع قوله في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (القصص).

وفي التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فيدعون الأصنام فلا يستجيبون فتظهر حيرتهم، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون، وهو توبيخ وزيادة خزي.

وقال: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾، لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

لـمَّا عاينوا القيامة تبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، كما تقدم في غير موضع ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: بطل عنهم ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: أيقنوا وعلموا، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ (فصلت) أي: فرار عن النار.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ قيل: هم العلماء، قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون إلى وعظهم، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة وقيل: هم الأنبياء، وقيل: الملائكة، والظاهر الأول، لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد ذلك، وإن كان الأنبياء والملائكة هم من أهل العلم، بل هم أعرق فيه، لكن لهم وصف يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف، وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة.

وابتدؤوا جوابهم بتوجيه النداء إلى الله بعنوان أنه ربهم، ﴿رَبَّنَا﴾: نداء أريد منه الاستعطاف بأنه الذي خلقهم اعترافاً منهم بالعبودية، وتمهيداً للتنصل من أن يكونوا المخترعين لدين الشرك، فإنهم إنما تلقوه عن غيرهم من سلفهم، والإشارة بـ «هؤلاء» إلى بقية المنادين معهم قصداً لأن يتميزوا عمن سواهم من أهل الموقف، وذلك بإلهام من الله ليزدادوا رعباً، وأن يكون لهم مطمع في التخليص، وهو اعتراف بأنهم أغووهم.

اعترفوا بمثل هذا الجرم! فأرادوا بيان الباعث لهم على إغواء إخوانهم

ببثّهم في عامة أتباعهم الغواية المستقرة في نفوسهم، وظنوا أن ذلك الاعتراف يخفف من العذاب بقرينة قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

كررت جملة (يوم يناديهم) مرة ثانية، لأن التكرير من مقتضيات مقام التوبيخ فأعيد ذكر أن (الله يناديهم) بهذا الاستفهام التقريعي، فظاهر الآية أن ذلك النداء يكرر يوم القيامة.

(وهاتوا) اسم فعل معناه (ناولوا)، و(هاتِ) مبني على الكسر، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾، واستعيرت المناولة للإظهار.

والأمر مستعمل في التعجيز فهو يقتضي أنهم على الباطل فيما زعموه من الشركاء، ولـمّا علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله أيقنوا أن الحق مستحق لله – تعالى – أي علموا علم اليقين أنهم لا حقّ لهم في إثبات الشركاء، وأن الحق لله، إذ كان ينهاهم عن الشرك على لسان الرسول في الدنيا، وأن الحق لله، إذ ناداهم بأمر التعجيز في قوله ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يشمل ما كانوا يكذبونه من المزاعم في إلهية الأصنام وما كانوا يفترون له الإلهية من الأصنام، كل ذلك كانوا يفترونه.

هل من شركائكم؟!

- لا شك أن أعظم ما يمكن أن يحققه العبد هو أن يوحد الله -عز وجل-، ولا يشرك به شيئاً، فهو حق الله على العباد، ولتحقيق هذه الغاية، أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، ووعد الموحدين بالنجاة، وتوعد المشركين بالهلاك، فالمرء لا زال يرجو النجاة ما دام لم يقع في الشرك.

- أراك دائما تشدد على ضرورة التوحيد، والتحذير من الشرك.

- بالطبع ببساطة من حقق التوحيد كما يريد ربنا ويرضى، نجا يوم القيامة ومن وقع في الشرك، هلك يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء).

ولذلك جاءت آيات التوحيد محكمة واضحة بيّنة، لا لبس فيها، تناقش المشركين أحياناً، وتتحداهم أحياناً أخرى، من هذه الآيات قوله -تعالى:

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ

كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يونس).

حوار فيه خطاب للعقول المنصفة والفطر السليمة، لا يملك العاقل الذي يريد الحق، وتجرد عن الكبر والعناد والجحود، إلا أن يقول: «لا إله إلا الله» موحداً، إلا من كابر كما فعل مشركو مكة، على مدى سنوات بعثة النبي ﷺ حتى آخر حياته فيهم ﷺ.

- صاحبي ينتقد شدتي في موضوع العقيدة، يراني أنكر كل ما يخالف العقيدة، في المقبرة في الأسواق، في رحلاتنا الخارجية، عند الأضرحة والمزارات، وعند مشاهدة ما يفعله العوام في الأماكن التي سموها بغير حق، «الحرم»، وما هي إلا أضرحة يشركون بالله عندها!

- في هذه الآيات يتحدى الله -عز وجل- كل مشرك، في أن يثبت أن أحداً غير الله يرزقه، أو أن أحداً غير الله يحيي ويميت ثم يبعث الموتى، أو أن أحداً - سواء كان صنماً أم رسولاً أم صالحاً متوفى- يملك الضر والنفع، وبالطبع نهاية هذا التحدي عجزَ المشركون والجاحدون، عن الإجابة، فلا يكون إصرارهم على الكفر إلا نتيجة عناد وجحود، يستحقون عليه العذاب في الدنيا والآخرة، وتعال نقرأ تفسير هذه الآيات لنزداد علماً وهداية.

قوله -تعالى-: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: من إعطائكم السمع والأبصار، ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ

﴿ٱلْحَيِّ﴾ يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يقضي الأمر، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ أفلا تخافون عقابه في شرككم؟ وقيل: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار؟

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أوثانكم، ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ينشئ الخلق من غير أصل ولا مثال، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ثم يحييه من بعد الموت كهيئته، فإن أجابوك وإلا فـ﴿قُلْ﴾ أنت: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: تصرفون عن قصد السبيل.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ﴾ يرشد، ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ فإذا قالوا: لا- ولابد لهم من ذلك - ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي إلى الحق.

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يهدى؟

فإن قيل: كيف قال: «إلا أن يهدى»، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يهدى؟

قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تحمل وتنقل، يتبين به عجز الأصنام.

وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر عمن يعلم ويعقل، ووصفت بصفة من يعقل.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكاً؟

وإنما أخبر الله عنهم بأنهم سيعترفون بأن الرازق والخالق والمدبر هو الله؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك كما تكرر الإخبار بذلك عنهم في آيات كثيرة من القرآن، وفيه تحدّ لهم فإنهم لو استطاعوا لأنكروا أن يكون ما نسب إليهم صحيحاً، ولكن خوفهم عارَ الكذب صرفهم عن ذلك فلذلك قامت عليهم الحجة بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

المراد بمساق هذا الكلام الرد على المشركين وتقرير الحجة عليهم، فمن اعترف منهم فالحجة ظاهرة عليهم، ومن لم يعترف فإنما هو مكابر جاحد معاند يستحق العذاب.

من ينجيكم؟

الإنسان بفطرته يحتاج للجوء إلى قوة أعظم، ولا سيما في لحظات العجز والضعف واليأس والقنوط، وعادة ما يتجه بنظره إلى السماء طالباً العون، ويستسلم منتظراً النجاة من جهة أخرى، والمؤمن يتعلق بالله، والكافر المنكر لوجود إله، يتعلق بشيء يظن أنه يملك القدرة على إخراجه من الموقف العصيب الذي وقع فيه. ربما تكون هذه اللحظات، سبباً للرجوع إلى الله والإيمان به، ولكن أغلب الناس بعد تجاوزهم لأزماتهم يرجعون إلى ما كانوا عليه! حتى وإن كانوا أعطوا المواثيق وقطعوا العهود على أنفسهم أن يكونوا من المؤمنين.

- استمع إلى هذه الآيات من سورة الأنعام، وتدبر تفسيرها:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنعام).

(الظلمات) قيل على حقيقتها، أي من إضرار ظلمات البر والبحر، فظلمات البر ظلمة الليل التي يلتبس فيها الطريق للسائر ويخشى فيها العدو للسائر وللقاطن، أي ما يحصل في ظلمات البر من الآفات. وظلمات البحر يخشى فيها الغرق والضلال والعدو، وقيل: أطلقت الظلمات مجازاً على المخاوف الحاصلة في البر والبحر، كما يقال: يوم مظلم إذا حصلت فيه شدائد.

قال النحاس: والعرب تقول: يوم مظلم، إذا كان شديداً، فإذا عظّمت ذلك قالت: يوم ذو كوكب، أي يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كوكب.

والاستفهام للتقريع والتوبيخ: أي ينجيكم من شدائدهما العظيمة؟ أي من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية أو متضرعين ومخفين؟ والمراد بالتضرع هنا: دعاء الجهر.

قائلين (لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نزلت بنا) وهي الظلمات المذكورة (لنكونن من الشاكرين لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد)، والشاكر هو الذي يراعي نعمة المنعم فيحسن معاملته كلّما وجد لذلك سبيلاً، وقد كان العرب يرون الشكر حقاً عظيماً ويعيّرون من يكفر النعمة. وقولهم: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أبلغ من أن يقال: لنكونن شاكرين، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الأنعام).

وجملة: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ تلقين لجواب الاستفهام من قوله: ﴿مَن يُنَجِّيكُمْ﴾ أن يجيب عن المسؤولين، ولذلك فصلت جملة (قل): لأنها جارية مجرى القول في المحاورة، وتولّى الجواب عنهم، لأن هذا الجواب لا يسعهم إلا الاعتراف به.

و(ثم) من قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ للترتيب، لأن المقصود أن إشراكهم مع اعترافهم بأنهم لا يلجؤون إلّا إلى الله في الشدائد أمر عجيب، فليس المقصود المهلة، أي أنتم الذين تتضرعون إلى الله، تشركو به من قبل ومن بعد.

وتشركون بالله – سبحانه – بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدائد وذهاب الكروب شركاء لا ينفعونكم، ولا يضرونكم، ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟ من باب: لو غيرك قالها، ولو ذات سوار لطمتني!!

والخلاصة أن الله أنجاكم فوعدتم أن تكونوا من الشاكرين فإذا أنتم تشركون.

فالمخاطب بضمائر الخطاب هم المشركون، والمقصود من الكلام ليس الإعلام بقدرة الله تعالى – فإنها معلومة، ولكن المقصود التهديد بتذكيرهم بأن القادر من شأنه أن يُخاف بأسه وهذا تهديد لهم.

والتعريف في (القادر) تعريف الجنس، إذ لا يقدر غيره – تعالى – على مثل هذا العذاب، و(العذاب) الذي من فوق مثل الصواعق والريح، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان. وقيل: عذاباً من فوقكم أئمة السوء أو من تحت أرجلكم قال: خدم السوء. و(يلبسكم) مضارع لبسه – بالتحريك – أي خلطه، وتعدية فعل يلبسكم إلى ضمير الأشخاص بتقدير اختلاط أمرهم واضطرابه ومرجه، أي اضطراب شؤونهم، فإن استقامة الأمور تشبه انتظام السلك، ولذلك سميت استقامة أمور الناس نظاماً، ويعكس ذلك اختلال الأمور والفوضى تشبه اختلاط الأشياء، وذلك سمي مرجاً ولبساً.

وشيعة الرجل أتباعه والمقتدرون به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ (الصافات) أي من شيعة نوح.

وتشتت الشيع وتعدد الآراء أشد في اللبس والخلط، لأن اللبس الواقع كذلك لبس لا يرجى بعده انتظام - وعطف عليه ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥)، لأن من عواقب ذلك اللبس التقاتل - فالبأس هو القتال والشر، قال تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ (النحل: ٨١).

وهذا تهديد للمشركين، وقد وقع منه الأخير فإن المشركين ذاقوا بأس المسلمين يوم بدر وفي غزوات كثيرة.

كيف تكفرون بالله؟

- آيات كثيرة في كتاب الله تثبت قدرة الله على البعث بعد الموت، ثم الحساب والجزاء، وذلك أن الإنسان إذا أيقن أنه سيبعث بعد موته، ويجازى على أعماله، يفكر ملياً قبل أن يعصي الله، فضلاً عن أن يكفر بالله. ولذلك تورد الآيات هذا السؤال ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ؟﴾، سؤال صريح يحدث صعقة إيجابية في العقل، ويورث صدمة إيمانية في القلب تدفع العاقل إلى التوقف والتفكير والتدبر واتخاذ القرار الصحيح بالإيمان بالله واليوم الآخر.

صاحبي يحمل درجة الأستاذية في (الفكر التربوي)، درس في الولايات المتحدة، وتميز في بيان النظريات التربوية الغربية، باستخدام آيات الكتاب المبين، مع أني أختلف معه في كثير من أطروحاته، إلا أنه وجد قبولاً كبيراً عند فئة شاسعة من التربويين وعامة الناس.

- من الآيات التي تلزم العقل بالتوقف عندها، قوله -سبحانه-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة)، ففي هذه الآية ألزم -عز وجل- الناس بعدم الكفر والإيمان به، إذا ثبت لديهم ما ذكر بعد ذلك ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (الآية)، وهذا الأسلوب التربوي يجبر العقل على التفكر في الحجة ليحاول دحضها، فإن لم يستطع لزمه قبولها.

- دعنا نطّلع على تفسير هذه الآية ومثيلاتها، فهذا أحب إلي من الصدمات والصفعات التربوية. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة).

(كيف) سؤال عن الحال، والتعجب، أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة. و(كيف) لفظه لفظ الاستفهام وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ، أي كيف تكفرون نعمة الله عليكم وقدرته هذه؟ وبخهم بهذا غاية التوبيخ، لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء.

قوله -تعالى-: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ هذه (الواو) واو الحال، والتقدير (وقد كنتم أمواتا) ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: أي كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا فأحياكم -أي خلقكم- ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة، وهو الذي لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماته فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها. وفي مناسبة نزول الآية ورد أنها نزلت في أُبيّ بن خلف، وقيل العاص بن وائل، وقيل أبوجهل... في الروايات: جاء أحد هؤلاء الثلاثة إلى رسول الله ﷺ في يده عظم إنسان رميم ففته وذراه في الريح وقال: يا محمد أتزعم أن الله يحيي هذا بعد ما أرم (أي بلى) فقال له النبي ﷺ: نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم. (الحاكم)

وذكر الله هذه المسألة في آيات أخرى من كتابه العزيز مثل قوله -سبحانه- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الجاثية).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ (الحج).

وفي تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في حدوث البعث ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ -الموتى- نسألهم عن صدق ما تقولون، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ يعني بعد كونكم نطفاً أمواتاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم، وسمى قولهم حجة وليس بحجّة؛ لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجّة. كأنه قيل: ما كان حجّتهم إلا ما ليس بحجّة، والمراد نفي أن تكون لهم حجّة البتة، وفي قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجة البيّنة، والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث.

ولما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت ألزموا ما هم مقرّون به من أن الله -عز وجل- وهو الذي يحييهم ثم يميتهم، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

هم اعتقدوا ألّا حياة بعد الممات استناداً للأوهام والأقيسة الخيالية، وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه، لم يعارضوها بما يبطلها بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون: إن كان البعث حقاً فأتوا بآبائنا إن صدقتم. فالمراد بالآيات آيات القرآن المتعلقة بالبعث بدليل ما قبل الكلام وما بعده، والخطاب بفعل ائتوا موجه للمؤمنين بدخول الرسول ﷺ.

وقوله: (لا ريب فيه) حال من يوم القيامة، أي لا ريب في وجوده بما يقتضيه من إحياء الأموات، ومعنى نفي الريب فيه أنه حقيقة بكثرة الدلائل الدالة على إمكانه وعلى أنه بالنسبة لقدرة الله ليس أعجب من بدء الخلق، وأن الله أخبر عن وقوعه فوجب القطع بوقوعه، فكان الشك فيه جديراً بالاقتلاع فكأنه معدوم، وهذا كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الكهان «ليسوا بشيء» (مسلم)، مع أنهم موجودون فأراد أنهم ليسوا بشيء حقيق. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾، ارتياب كثير من الناس فيه لأنهم لا يعلمون دلائل وقوعه.

وقوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ﴾ أي بعد أن كنتم نطفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي للحساب والثواب والعقاب، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ أي لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (الحج: ٦٦)، بعد أن أدمج الاستدلال على البعث بالمواعظ والمنن والتذكير بالنعم أعيد الكلام على البعث هنا بمنزلة نتيجة القياس، فذكّر الملحدين بالحياة الأولى التي لا ريب فيها وبالإماتة التي لا يرتابون فيها، وبأن بعد الإماتة إحياء آخر كما أخذ من الدلائل السابقة، وهذا محل الاستدلال، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ (الحج) تذييل يجمع المقصد من تعداد نعم المنعم بجلائل النعم المقتضية انفراده باستحقاق الشكر ولاعتراف الخلق له بوحدانية الربوبية.

فأي آيات الله تنكرون؟

يدّعي (العقلانيون) من الذين يزعمون أن العقل يوصل إلى الحقيقة أن الدين يلغي العقل، وهذه نتيجة توصلوا إليها من فرضيات خاطئة، وضعوها وتبنوها دونما عقل!!

– هل تعلم كم مرة ذكر الله –عز وجل–، (العقل) وأهله ومهماته في القرآن الكريم؟ وهل تعلم أن الله أثنى على أصحاب العقول، والذين يتفكرون؟

لم يجبني، تابعت حديثي:

– في القرآن أكثر من ألف آية، ذكر الله فيها أولي الألباب: ﴿الذين يتفكرون﴾ ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾، وغيرها، مثنياً عليهم، المشكلة هي أن (أصحاب المنهج العقلي، أو التجريبي)، يستخدمونه في غير موضعه، كمن يستخدم العين ليسمع، أو الأذن ليرى، فيبيّن الله لنا في آيات كثيرة، أن النظر والتفكر والتدبر في آيات الله يهدينا إلى الخالق –عز وجل–، وأنه قادر عظيم قوي، يدبر شؤون هذا الكون بما فيه، ومن فيه.

والآيات كثيرة جداً، ابتداء من خلق الإنسان ووظائف أعضائه، وانتهاء بخلق السماوات والأرض، مروراً بالأرض والزرع والبحار والأنهار والجبال، والطير والدواب وكل شيء حولنا، يدلنا على خالقه، –سبحانه وتعالى.

ولا يسع العاقل المنصف إلا أن يؤمن بالله –عز وجل– وحده لا شريك له، لكثرة الأدلة ووضوحها؛ ولذلك يقول –عز وجل–: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ

﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ (غافر)؟ والجواب عند كل عاقل، لا يمكننا أن ننكر آية من آيات الله، ودعني أقرأ لك شيئا من تفسير هذه الآية، ومثيلاتها، وهذا ما يجب على كل عاقل أن يفعله، وهو أن يطلع على ما يقوله أهل الاختصاص حتى يصل إلى العلم الصحيح، اسمع هداني الله وإياك.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ (غافر).

أي الله الذي يريكم آياته، بعد أن ذكر لهم بعض النعم الظاهرة والملازمة لهم في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ (غافر:٦١)، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ (غافر:٦٤)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (غافر:٦٧)، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (غافر)، فإن تلك ذكرت تنبيهاً بالشكر، فنبه هنا على أن في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة، ولذلك كان قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدل على وجوب توحيده وتصديق رسله، ونبذ المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم، وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع (يريكم) لدلالته على التجدد؛ لأن الإنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته، والإراءة هنا بصرية، ومن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال، وفيه إشارة إلى أن دلالة وجود الخالق ووحدانيته وقدرته برهانية تنتهي إلى اليقين بالضرورة.

وفرّع على إراءة الآيات استفهام إنكاري عليهم من أجل إنكارهم ما دلت عليه تلك الآيات وذلك باستخدام أسلوب (أي).... و(أي)، هنا مستعمل في

إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن يُنكر دون غيره من الآيات، فيفيد أن جميع الآيات صالح للدلالة على وحدانية الله وقدرته لا مساغ لإدعاء خفائه، وأنهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى هذه الآيات.

ومثل هذا التساؤل تكرر مرات في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهو خطاب للإنس والجن، يدل عليه حديث جابر بن عبدالله الأنصاري: أن النبي ﷺ خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن وهم ساكتون فقال لهم: «**لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد**» (حسنه الألباني)، وقيل: لما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ دل ذلك على أن ما تقدم وما تأخر لهما، وأيضا قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ وهو خطاب للإنس والجن وقد قال في هذه السورة ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

والتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير.

وقال القتبي: إن الله -تعالى- عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك أفتنكر هذا؟! والتكرير حسن في مثل هذا.

والتكذيب مستعمل في معنى الجحد والإنكار مجاز لتشنيع هذا الجحد.

وتكذيب الآلاء كناية عن الإشراك بالله في الإلهية، والمعنى: فبأي نعمة من نعم الله عليكم تنكرون إنها نعمة عليكم فأشركتم فيها غيره؛ إذ تعبدون غيره دواماً. وفي قوله -عز وجل- ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ (النجم).

والآلاء: النعم، وهو جمع مفرده: (إلى)، بكسر الهمزة وبفتحها مع فتح اللام مقصوراً، ويقال: (إلي، وألي)، بسكون اللام فيهما وآخره ياء متحركة، ويقال: (ألو)، بهمز مفتوحة بعدها (لا) ساكنة وآخره واو متحركة مثل: دلو. و(التمار): التشكك وهو تفاعل من المرية.

والمقصود الأصلي: التعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعم غيرَ المنعم، والشهادة عليهم بتوحيد المؤمنين، والتكذيب مستعمل في الجحود والإنكار.

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين!

بهذه العبارة أمر الله -تعالى- رسوله ﷺ أن يقيم الحُجة على من زعم أن مع الله إلهاً آخر، ومن زعم من اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، ومن زعم من النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، فما كان من الجميع إلا أن كُبتوا عندما طلبت منهم الحجة؛ فتبين أن كل ما ادعوه باطل وما جاء به الرسول ﷺ هو الحق.

- ما الآيات التي وردت فيها هذه الآية ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾؟

كنت وصاحبي في صالة الاستقبال للرحلات القادمة بانتظار أحد المشايخ قادماً من مصر، وكانت زيارتي الأولى للمطار منذ أكثر من عامين نتيجة الجائحة التي أصابت العالم كله!

- أربع آيات من كتاب الله أمر الله بها رسوله أن يلجأ إلى هذه الحجة: ولو تدبرنا تفسير هذه الآيات أيقنّا أنها حقاً كبتت وتحدت ووبخت الجميع، ولم يجدوا جواباً إلا السكوت، والاستمرار في العناد. ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة). ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الأنبياء). ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل). ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ ، ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ أي: حجتكم على ذلك ، ثم قال مستأنفاً، ﴿هَذا﴾

يعني القرآن. ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلى يوم القيامة.

﴿وَذِكْرُ﴾ خبر ، ﴿مَن قَبْلِي﴾ من الأمم السالفة ما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة. وعن ابن عباس في رواية عطاء: ذكر من معي: القرآن ، وذكر من قبلي: التوراة والإنجيل ، ومعناه: راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أن الله اتخذ ولداً؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾. قيل لهم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ بأن رسولاً من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله؟ وقيل: معنى الكلام: الوعيد والتهديد، أي: افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾، أي: حجتكم على أن لله -سبحانه- شريكاً، أو هاتوا حجتكم أن ثَمّ صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيت لهم، وتهكم بهم، فعند ذلك اعترفوا، وخرسوا عن إقامة البرهان، ولذا قال: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الإلهية وأنه وحده لا شريك له ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (القصص)، أي: غاب عنهم وبطل، وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة.

وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أمر بأن يجابوا بهذا؛ ولذلك فصله لأنه في سياق المحاورة وأتى بـ (إنْ) المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان؛ لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقدُه دليلَ اعتقاده فهو اعتقاد كاذب؛

لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير عنه، ومن باب أولى لا يكون صادقاً عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده.

وفي تفسير الطاهر بن عاشور: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ﴾ (الأنبياء: ٢٤) هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

لقّن اللهُ رسوله ﷺ أن يقول: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ﴾ أي: هاتوا دليلاً على أن لله شركاء من شواهد الشرائع والرسل. والبرهان: الحجة الواضحة، وتقدم في قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ (النساء).

لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقيه أقبل على رسوله ﷺ بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله -تعالى-: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ﴾ (الأنبياء: ٢٤)، فأفاد تعميمه في شرائع سائر الرسل، سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقياً مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم. وفيها إظهار لعناية الله -تعالى- بإزالة الشرك من نفوس البشر، وقطع دابره إصلاحاً لعقولهم بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي، ولم تقطع دابر الشرك شريعة كما قطعه الإسلام.

وفي قوله -سبحانه-: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل).

انتقال إلى الاستدلال بتصرف الله -تعالى- بالحياة الأولى والثانية

وبإعطاء المدد لدوام الحياة الأولى مدة مقدرة. وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. والاستفهام تقريري؛ لأنهم لا ينكرون أنه يبدأ الخلق وأنه يرزقهم.

وأدمج في خلال الاستفهام قوله ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأن تسليم بدئه الخلق يلجئهم إلى فهم إمكان إعادة الخلق. ولما كان إعادة الخلق محل جدل وكان إدماجها إيقاظاً وتذكيراً أعيد الاستفهام في الجملة التي عطفت عليه بقوله: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولأن الرزق مقارن لبدء الخلق فلو عطف على إعادة الخلق لتوهم أنه يرزق الخلق بعد الإعادة فيحسبوا أن رزقهم في الدنيا من نعم آلهتهم. وإذ قد كانوا منكرين للبعث ذيلت الآية بأمر التعجيز بالإتيان ببرهان على عدم البعث.

والأمر مستعمل في التعجيز، فهو يقتضي أنهم على الباطل فيما زعموه من الشركاء، ولما علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله أيقنوا أن الحق مستحق لله -تعالى-، أي علموا علم اليقين أنهم لا حق لهم في إثبات الشركاء، وأن الحق لله؛ إذ كان ينهاهم عن الشرك على لسان الرسول ﷺ في الدنيا، إذ ناداهم بأمر التعجيز في قوله: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

هل ينفعونكم أو يضرون؟

في آيات كثيرة يخاطب الله -عز وجل- المشركين مقيماً الحجة عليهم، ومبيناً عجزهم وعجز آلهتهم، بأن هذه الآلهة لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، فكيف تنفع غيرها؟ وأن هذه الآلهة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تنصر غيرها؟ ولكن يبقى أهل الشرك على شركهم رغم علمهم بهذه الحقائق، ورغم عجزهم عن الإجابة عن هذه الحجج البيّنة!

يقول -عز وجل-:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ (الفرقان).

ويقول -سبحانه-: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ (الرعد).

وعندما جعل إبراهيم أصنامهم جذاذاً:

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ (الشعراء).

ويقول -عز وجل-: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ (المائدة).

قوله -تعالى-: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أَمَرَ الله -تعالى- نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو

الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو!! ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق وإلّا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (الزمر: ٣٨) أي فإذا اعترفتم فلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الآخر لا ينفع ولا يضر، وهو إلزامٌ صحيح.

لـمَّا نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوعة على انفراده بالإلهية من قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ (الرعد:٣) وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ (الرعد) وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ (الرعد) الآيات، إلى آخرها لا جرم أن تهيؤَ المقام لتقرير المشركين تقريراً لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعاً لا يسعهم إلا تجرع مرارته؛ لذلك استوقف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويهاً بوضوح الحجة.

فالاستفهام ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناء على الإقرار المسلم. وفيه استدلال آخر على عدم استحقاق أصنامهم للأهلية فإن اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

وجملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة فإنهم إن تدبَّروا علموها وعلموا أن من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد.

ومعنى (الملك) هنا القدرة كما في قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ في سورة العقود (المائدة:٧٦).

وعطف الضُّر على النفع استقصاء في عجزهم؛ لأن شأن الضُّر أنه أقرب للاستطاعة وأسهل.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ (الرعد)، (أم) الانتقال في الاستفهام مقابل قوله: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ فالكلام بعد (أم) استفهام مستعمل في التهكم والتغليظ، فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتخاذهم آلهة، أي فلا عذر لهم في عبادتهم، فجملة (خلقوا) صفة لـ(شركاء). وجملة (فتشابه) عطف على جملة (خلقوا كخلقه) فهي صفة ثانية لـ(شركاء)، والوصفان هما مصب التهكم والتغليظ.

وجملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فذلك لما تقدم ونتيجة له، فإنه لما جاء الاستفهام التوبيخي في ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾؛ بحيث ينتج أن أولئك الذين اتخذوهم شركاء لله والذين تبيّن قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً أو ضراً، وأنهم لا يخلقون كخلق الله ما هم إلا مخلوقات لله -تعالى-، وأن الله خالق كل شيء، وما تلك الأصنام إلا أشياء داخلة في عموم ﴿كُلِّ شَىْءٍ ﴾، وأن الله هو المتوحد بالخلق، القهار لكل شيء دونه.

لا يملكون ضراً ولا نفعاً

حاورت أحد الذين يقدمون النذور إلى الأضرحة... وذلك في إحدى زياراتي المتكررة لمصر.. وكان قد ساق نذره ضأناً من الصعيد.. فكان منطقه أنه يتقرب إلى الله.. بتقديم النذر إلى عبد صالح من عباد الله... لعل كربته تفرج بواسطة هذا العبد الصالح القريب من رب العالمين!!

لقد كان يرجو رفع (ضر) وقع.. وهو مرض زوجته.. وذات المنطق أخبرني به.. رجل آخر عند ضريح في السودان.. كان يرجو أن يرزق ولداً... بعد أن حملت زوجته... لأنه قدم نذراً سابقاً.. لتأخر حملها أربع سنوات!!!

وفي زيارتي للعراق.. أكد لي أحد زوار الضريح أنه على يقين أنه بزيارته ودعائه.... سينال مراده... إن كان صادقاً مع الله مخلصاً في زيارته للضريح!!

وهذا منطق كل من يعبد شيئاً مع الله.. أو يدعو أحداً مع الله.. يرجون جلب النفع أو دفع الضر... ولا يعلمون أن هذا شرك أكبر يخلَّد صاحبه في النار!!

وبيّن الله ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ (المائدة).

﴿أَتَعْبُدُونَ ﴾ خطاب لجميع من يعبد شيئاً من دون الله من المشركين والنصارى. والاستفهام للتوبيخ والتغليظ مجازاً.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير الله.

أي أتشركون مع الله غيره في الإلهية، وليس المعنى أتعبدون معبوداً وتتركون عبادة الله.

حتى الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فهم ما عبدوا المسيح إلا لزعمهم أن الله حلّ فيه فقد عبدوا الله فيه، فشمل هذا الخطاب كل من عبد مع الله شيئاً آخر.

جيء بـ (ما) الموصولة دون (من) لأن معظم ما عُبد من دون الله أشياء لا تعقِل، وقد غلب (ما) لما لا يعقل.

ومعنى ﴿لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا﴾ لا يقدر عليه، وحقيقة معنى (الملك) التمكن من التصرف بدون معارض، ثم أطلق على استطاعة التصرف في الأشياء بدون عجز.

ومن هذا الاستعمال نشأ إطلاق (الملك) بمعنى الاستطاعة القوية الثابتة كما وقع في هذه الآية ونظائرها مثل قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ۝٣﴾ (الفرقان)، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (يونس: ٤٩)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ (العنكبوت: ١٧).

وقدّم الضُّر على النفع هنا لأن النفوس أشد تطلعاً إلى دفعه من تطلعها إلى جلب النفع، فكان أعظم ما يدفعهم إلى عبادة الأصنام أن يستدفعوا بها الأضرار بالنصر على الأعداء وبتجنبها إلحاق الإضرار بعابديها.

ووجه الاستدلال على أن معبوداتهم لا تملك ضراً ولا نفعاً، وقوع الأضرار بهم وتخلف النفع عنهم، بل وعجز الأصنام أن تدفع الضرَّ عن نفسها كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أصنام قومه فحاجَّهم!!

وجملة ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ في موضع الحال أي ولا يسمع كل دعاء ويعلم كل احتياج إلا الله تعالى، أي لا عيسى ولا غيره مما عُبد من دون الله.

وفي موقع هذه الجملة تحقيق لإبطال عبادتهم عيسى ومريم من ثلاثة طرق: طريق القصر وطريق ضمير الفصل وطريق جملة الحال باعتبار ما تفيده من مفهوم مخالفة.

وهذا من الله تعالى ذكره، تعليم لنبيّه الحجة على جميع المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، وإنما يستحق العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء.

وفي سورة يونس (٤٩) يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾، لما استعجلوا النبي ﷺ، بالعذاب قال الله له: قل لهم يا محمد ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ أي ليس ذلك لي ولا لغيري ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾ أي وقت انقضاء أجلهم: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين في الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون.

وفي سورة الأعراف يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾.

وقدَّم النفع في الذكر هنا على الضُّر: لأن النفع أحب إلى الإنسان، وعكس في آية المائدة لأن المقصود تهوين أمر معبوداتهم وأنها لا يُخشى غضبها.

وإنما عطف قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ مع أن المرء لا يتطلّب إضرار نفسه لأن المقصود تعميم الأحوال إذ لا تعدو أحوال الإنسان عن نافع وضار، فصار ذكر هذين الضدين مثل ذكر المساء والصباح وذكر الليل والنهار والشر والخير وجعل نفي أن يملك لنفسه نفعاً أو ضراً مقدّمة لنفي العلم بالغيب، لأن غاية الناس من التطلع إلى معرفة الغيب هو الإسراع إلى الخيرات المستقبلية بتهيئة أسبابها وتقريبها، وإلى التجنّب لمواقع الأضرار، فنفي أن يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، يعمّ سائر أنواع الملك وسائر أنواع النفع والضر، ومن جملة ذلك العموم ما يكون منه في المستقبل وهو من الغيب.

والاستثناء من مجموع النفع والضر، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن يملكنيه بأن يعلمنيه ويقدّرني عليه، فإن لم يشأ ذلك لم يُطلعني على مواقعه وخلق الموانع من أسباب تحصيل النفع، ومن أسباب اتقاء الضر.

فادعوهم فليستجيبوا لكم

«**إن الدعاء هو العبادة**»، قاله النبي ﷺ (صحيح الترمذي)، ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠)، وفي آيات كثيرة يذكر الله -عز وجل- الدعاء مكان العبادة، والعبادة مكان الدعاء، مثل قوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (غافر). وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ (مريم).

- ما معنى «إن الدعاء هو العبادة»؟

- هذا مثل قوله ﷺ: «الحج عرفة»، و«الدين النصيحة»، وذلك لبيان أن الدعاء أصل العبادة، وأهم ركن من أركان العبادة، كما الوقوف بعرفة بالنسبة للحج، لذلك لا ينبغي صرف أي جزء من الدعاء لغير الله، وفي هذه الآيات يتحدى الله -عز وجل- المشركين أن يدعوا أصنامهم، وأقام عليهم الحجة أن هذه الأصنام لا قيمة لها، ففي تفسير هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ (الأعراف).

المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنام، والمشهور أنه لا يطلق إلا

على المخلوقات من الآدميين؛ فيكون إطلاق (العباد) على الأصنام كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق، وجعله صاحب (الكشاف) إطلاق تهكم واستهزاء بالمشركين، يعني أن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فلو بلغوا تلك الحالة لَمَا كانوا إلا مخلوقين مثلكم، وأبطل أن يكونوا عباداً بقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾؟ إلى آخره.قال ابن عباس: معنى ﴿فَٱدْعُوهُمْ ﴾ فاعبدوهم، ثم وبخهم الله -تعالى- وسفه عقولهم فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآية، أي أنتم أفضل منهم فيكف تعبدونهم؟

﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أخبرهم -سبحانه- بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عبادٌ لله كما أنتم عبادٌ له، مع أنكم أكمل منهم؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مُسخّرة لأمره، وفي هذا تقريع لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم؛ لأن هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم، فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها، في نفع أنفسهم فضلاً على أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم أيد يبطشون بها كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون، وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز، و(أم) في هذه المواضع هي المنقطعة التي بمعنى (بل).

لما بيّن لهم حال هذه الأصنام، وتأكيد وجوه النقص والعجز لها من كل باب، أمره الله بأن يقول لهم ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر، ثم كيدوني أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد فلا تنظروني أي: فلا تمهلوني، ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها، والكيد: المكر، وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء، ثم قال: إن وليي الله الذي أنزل الكتاب، أي: كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها ولي وليٌّ ألجأ إليه وأستنصر به وهو الله -عز وجل- الذي نزل الكتاب، وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها، و(ولي) الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته، ويمنع منه الضرر ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾، أي: يحفظهم وينصرهم، ويحول بينهم وبين أعدائهم.

- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ (الأعراف)، كرر -سبحانه- هذا لمزيد التأكيد والتقرير، ولما في تكرار التوبيخ والتقريع من الإهانة للمشركين والتنقيص بهم، وإظهار سخف عقولهم، وركاكة أحلامهم ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ (الأعراف) جملة مبتدأة لبيان عجزهم، أي: والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون بها، قيل: كانوا يجعلون للأصنام أعيناً من جواهر مصنوعة، فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولا يبصرون، وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم، وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

وهذا البيان والتحدي لعبدة الأصنام وقع قبل ذلك بين إبراهيم -عليه السلام- وقومه، كما قال -تعالى-: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ

إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنبياء).

وهكذا حال من يدعو الأضرحة ويتضرع عندها ويتقرب إليها وينذر لها. يدعون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم!!

بل إياه تدعون!!

- لم يترك كتاب الله سبيلاً لهداية البشر إلا بينه، أمرهم بالتفكر في خلق السماوات والأرض، وأثر الرياح والمطر، وأحوال النبات وتحوله من حبة تشق الأرض ثم تستوي ثم تصفر ثم تكون حطاماً، وأشار إلى الجبال والبحار والفُلك، بل وبيّن لبني آدم أن يتفكروا في أنفسهم، بداية خلقهم ونموهم وخروجهم إلى الدنيا، ثم موتهم، الشاهد أن الحجة قامت على البشر، أن يوحدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ومع ذلك أصرّ كثير من الناس على عبادة غير الله، والشرك بالله، فأتت آيات أخرى من كتاب الله تتحداهم، وتعجزهم، وتبين ألّا حجة لهم ولا برهان، وإذا هم ماتوا على ما هم عليه من الشرك، فإن عذاباً شديداً خالداً ينتظرهم.

- أظن أننا يمكن أن نقول: إن القرآن تعامل مع (النفسيات) البشرية كافة، والطبقات الإنسانية جميعها، فمن لم يهتد بالآيات الكونية التي أشار إليها القرآن، له أن يفكر بالمعجزات العلمية، ومن لم يفهم الآيات السماوية وحركة الأفلاك، ولاسيما الشمس والقمر، ينظر إلى عجائب خلق الإنسان، وتفاصيل عمل أعضائه، هذا إذا لم يقتنع، ابتداء أن القرآن كلام الله بإعجازه اللغوي وفصاحته وبلاغته وترتيب كلماته وجمله، بل وأحرفه.

صاحبي متخصص في (علم النفس) ومع أني لا أحب هذا التخصص، ولا أعتقد أنه (علم) إلا أن صاحبي يلجأ دائما إلى آيات الله، وأحاديث النبي ﷺ في التعامل مع من يستشيره في الأزمات النفسية، وما أكثرهم!

- استمع إلى قول الله -تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ

أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنعام).

الآية في محاجّة المشركين ممن اعترف أن له صانعاً، أي: أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله ، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضاً فلِمَ تصرون على الشرك في حال الرفاهية؟ وكانوا يعبدون الأصنام ويدْعون الله في صرف العذاب.

يقول -تعالى ذكره مكذّباً لهؤلاء العادلين به الأوثان-: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدّة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم وبه تستغيثون وإليه تفزعون دون كل شيء غيره. فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ يقول: فيفرّج عنكم عند استغاثتكم به وتضرّعكم إليه عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرّج ذلك عنكم؛ لأنه القادر على كلّ شيء ومالك كلّ شيء دون ما تدعونه إلهاً من الأوثان والأصنام. ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾: وتنسون حين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة بأهوالها ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه، فتجعلون له ندّاً من وثَن وَصَنم، وغير ذلك مما تعبدون من دونه وتدعونه إلهاً.

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ قيل: عند نزول العذاب. وقال الحسن: أي تعرضون عنه إعراض الناسي، وذلك لليأس من النجاة من قبله؛ إذ لا ضرر فيه ولا نفع. وقال الزجاج: يجوز أن يكون المعنى وتتركون.

وهو تعريض بالحث على خلع الشرك؛ إذ ليس لشركائهم نفع بأيديهم،

فذُكِّروا بأحوال قد تعرض لهم يلجؤون فيها إلى الله، وألقي عليهم سؤال أيستمرون على الإشراك بالله في تلك الحال؟ وهل يستمرون من الآن على الشرك إلى أن يأتيهم العذاب أو تأتيهم القيامة حين يلجؤون إلى الإيمان بوحدانيته، ولات حين إيمان. وافتتح هذا التهديد بالأمر بالقول اهتماماً به وإلّا فإن معظم ما في القرآن مأمورٌ الرسول ﷺ بأن يقوله لهم.

وقوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ تركيب شهير الاستعمال، يفتتح بمثله الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به، وهمزة الاستفهام فيه للاستفهام التقريري.

أي أتعرضون عن دعاء الله فتدعون غيره دونه كما هو دأبكم الآن، فالقصر لحكاية حالهم لا لقصد الرد على الآخر، وقد دل الكلام على التعجب، أي تستمرون على هذه الحال، والكلام زيادة في الإنذار.

وجملة: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ مستأنفة، وجوابها محذوف دل عليه قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الذي هو بمعنى التقرير. فتقدير الجواب: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فأنتم مقرون بأنكم لا تدعون غير الله، ذكّرهم في هذه الآية وألجأهم إلى النظر ليعلموا أنه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم ، فهم إن توخّوا الصدق في الخبر عن هذا المستقبل أعادوا التأمّل فلا يسعهم إلاّ الاعتراف بأنّ الله إذا شاء شيئاً لا يدفعه غيرُه إلاّ بمشيئته؛ لأنّهم يعترفون بأنّ الأصنام إنّما تقرّبهم إلى الله زلفى ، فإذا صدقوا وقالوا : أندعوا الله ، فقد قامت الحجّة عليهم من الآن؛ لأنّ من لا يغني في بعض الشدائد لا ينبغي الاعتماد عليه في بعض آخر.

ولذلك كان موقع ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ عقب هذا الاستفهام موقع النتيجة

للاستدلال. فحرف (بل) لإبطال دعوة غير الله، أي فأنا أجيب عنكم بأنكم لا تدعون إلا الله، ووجه تولي الجواب عنهم من السائل نفسه أن هذا الجواب عنه، كما تقدم في قوله -تعالى-: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ (الأنعام:١٢).

وقوله: ﴿فَيَكۡشِفُ﴾ عطف على تدعون، وهذا إطماع في رحمة الله لعلهم يتذكرون، ولأجل التعجيل به قدّم ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ وكان حقه التأخير، فهو شبيه بتعجيل المسرة، ومفعول: ﴿تَدۡعُونَ﴾ محذوف وهو ضمير اسم الجلالة، أي ما تدعونه. والضمير المجرور بـ(إلى) عائد على ﴿مَا﴾ من قوله ﴿مَا تَدۡعُونَ﴾ أي يكشف الذي تدعونه إلى كشفه، وإنما قيد كشف الضر عنهم بالمشيئة؛ لأنه إطماع لا وعد.

وفي قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ إشارة إلى مقابله، وهو إن لم يشأ لم يكشف، وذلك في عذاب الدنيا، ومما كشفه الله عنهم من عذاب الدنيا عذاب الجوع الذي في قوله -تعالى-: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ (الدخان)، فُسرت البطشة بيوم بدر.

وقوله: ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ يجوز أن يكون النسيان على حقيقته، أي تذهلون عن الأصنام؛ لما ترون من هول العذاب، وما يقع في نفوسهم من أنه مرسل عليهم من الله؛ فتنشغل أذهانهم بالذي أرسل العذاب، وينسون الأصنام التي اعتادوا أن يستشفعوا بها.

قل أرأيتم إن أخذ الله
سمعكم وأبصاركم من إله غير الله يأتيكم به (١)

أصابت جائحة كورونا كل أسرة في بلدنا، وأدت إلى وفاة بعض أحبابنا وجيراننا، جائحة لم نملك حيالها إلا التضرع إلى الله والدعاء حتى ييسر الله -عز وجل- إيجاد الدواء، إيماناً منا بقوله ﷺ: «**ما أنزل الله من داء وإلا وأنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**» اخرجه أحمد وابن ماجه (الصحيحة).

من الذين أصيبوا شقيقي (محمد) أدخل المستشفى لحاجته إلى العناية الطبية، ولم يحتج -بفضل الله- إلى عناية فائقة، وكذلك زوجتي وابني بعد سفرهما إلى تركيا، وابنتي وزوجها، وكلهم تعافوا منه بفضل الله -تعالى.

- يعجب المرء من ضعف ابن آدم وجبروته، من قلة حيلته وعناده، ومن قصور قوته وتكبره، رغم إصابة قرابة المئة مليون ووفاة مليونين من البشر، إلا أن أكثر الناس غافلون، معرضون، لاهون، جاهلون، حتى من أمتنا وبني جلدتنا!

كنت وصاحبي في طريقنا مشياً لاحتساء قهوة الضحى بعد أن زرته في منزله الجديد، الذي أسأل الله أن يبارك له فيه، ويمتعه وأهله به.

- صدقت، معظم الناس يتعاملون مع هذه الجائحة بظاهرها المادي ويغفلون عن العبر والآيات من ورائها.

- هؤلاء -مع الأسف- لا يتعظون بأعظم من ذلك، لذلك ينبههم

الله، اسمع مثل قول الله -تعالى-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنعام).

في هذه الآية احتجاج على الكفار.

قوله -تعالى-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾، ومعنى (أرأيتم) علمتم، (إن أخذ) أي أذهب وانتزع؛ لأن الله هو معطي السمع والبصر، فإذا أزالها كانت تلك الإزالة كحالة أخذ ما كان أعطاه، ووحد (سمعكم) لأنه مصدر يدل على الجمع. (وختم) أي طبع. ولعل إفراد السمع وجمع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفة أحد اللفظين مفرداً والآخر مجموعاً عند اقترانهما، كما قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ (الأحقاف:٢٦).

والقلوب مراد بها العقول في كلام العرب؛ لأن القلب سبب إمداد العقل بقوة الإدراك.

وقوله: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾؟ استفهام، أي أعلمتم جواب هذا الاستفهام أم أنتم في شك؟ وهو استفهام مستعمل في التقرير، يقصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه، فيوقنوا أنه لا إله غير الله يأتيهم بذلك؛ لأنه الخالق للسمع والأبصار والعقول، فضلاً عن أنهم لا ينكرون أن الأصنام لا تخلق، ولذلك قال لهم القرآن: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل).

والمستفهم عنه هو (إله) أي ليس إله غير الله يأتي بذلك، فدل علي الوحدانية، ومعنى (يأتيكم به) يرجعه، والكلام جار مجرى التهديد والتخويف، اختير فيه التهديد بانتزاع سمعهم وأبصارهم وسلب الإدراك من قلوبهم؛ لأنهم لم يشكروا نعمة هذه المواهب، بل عدموا الانتفاع بها، كما أشار إليه قوله آنفا ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ﴾ (الأنعام:٢٥). فكان ذلك تنبيهاً لهم على عدم إجداء هذه المواهب عليهم مع صلاحيتها للانتفاع، وناسب هنا أن يهددوا بزوالها بالكلية إن داموا على تعطيل الانتفاع بها فيما أمر به خالقها.

قل أرأيتم إن أخذ الله
سمعكم وأبصاركم من إله غير الله يأتيكم به(٢)

ما زال الحديث موصولاً عن تعامل الناس مع جائحة كورونا وقلنا أنهم تعاملوا معها بظاهرها المادي وغفلوا عن الآيات والعبر من ورائها، وتناولنا قول الله -تعالى-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنعام).

لما غمرهم بالأدلة على الوحدانية وصدق الرسول ﷺ، وأبطل شبههم عقّب ذلك كله بالتعجب من قوة الأدلة مع استمرار الإعراض والمكابرة، وقد تقدم قريباً منه عند قوله -تعالى-: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ﴾ (النساء:٥٠). وهذا تذكير لهم بأن الله هو خالق أسماعهم وأبصارهم وألبابهم؛ فما كان غيره جديراً بأن يعبدوه.

و(تصريف الآيات) اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، فالآيات هنا هي دلائل الوحدانية، فهي متحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامّها وخاصّها، وهي أيضا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير؛ بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول.

و(ثم) للترتيب وهو هنا التعجيب من قوة الأدلة وأن استمرار الإعراض والمكابرة مع ذلك أجدر بالتعجيب به.

وجيء في جملة (هم يصدفون) فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدد الإعراض منهم.

وفي قوله -سبحانه-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الأنعام).

استئناف للتهديد والتوعد وإعذار لهم بأن إعراضهم لا يرجع بالسوء إلا عليهم ولا يضر بغيرهم، كقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأنعام).

وجيء بـ(أرأيتكم) دون قوله (أرأيتم)؛ لأن هذا ونظيره أبلغ في التوبيخ، ولأنهما أظهر في الاستدلال على كون المشركين في مكنة قدرة الله، فإن إتيان العذاب وقوعاً من سلب الأبصار والأسماع والعقول لندرة حصول ذلك، فكان والتوبيخ على إهمال الحذر من إتيان عذاب الله، أقوى من التوبيخ على الاطمئنان من أخذ أسماعهم وأبصارهم.

و(الجهرة): ضد الخفية، وضد السر، وقد تقدم عنه قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (البقرة). وقد أوقع الجهرة هنا في مقابلة البغتة وكان الظاهر أن تقابل البغتة بالنظرة أو أن تقابل الجهرة بالخفية، إلا أن البغتة لما كانت وقوع الشيء من غير شعور به كان حصولها خفياً فحسن مقابلته بالجهرة، فالعذاب الذي يجيء بغتة هو الذي لا تسبقه علامة ولا إعلام به، والذي

يجيء جهرة هو الذي تسبقه علامة مثل الكسف المحكي في قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف: ٢٤). أو يسبقه إعلام به كما في قوله -تعالى-: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ (هود). والاستفهام في قوله: (هل يهلك) مستعمل في الإنكار فلذلك جاء بعده الاستثناء، والمعنى لا يهلك بذلك العذاب إلا الكافرون.

والمراد بـ(القوم الظالمين) المخاطبون أنفسهم فأظهر في مقام الإضمار ليأتي وصفهم أنهم ظالمون، أي مشركون، لأنهم ظالمون لأنفسهم وظالمون للرسول والمؤمنين.

أمَّنْ هذا الذي يرزقكم؟

من أقوى أساليب إقامة الحجة أن يُطرح السؤال، ويُترك للخصم الإجابة، وهكذا معظم الأسئلة في كتاب الله، لإثبات وحدانية الله، وقدرته المطلقة دون غيره، ولإثبات البعث والحساب والجزاء، ولنفي الشريك والابن، ومعظم قضايا العقيدة يثبتها الله - عز وجل - في كتابه بأسلوب يقيم الحجة على الكافر والمشرك، حتى إذا بعث يوم القيامة لم يجد حجَّة يقدمها ويعتذر بها لينجو من الخلود في نار جهنم.

كنت وصاحبي في مجلس قصير بعد صلاة الجمعة وقبل أن يحين موعد الغداء، وعادة نقضي نصف ساعة نناقش ما ورد في خطبة الجمعة، أو قضية عامة حصلت خلال الأسبوع، أو درس أو فتوى.

- من هذه الآيات التي وردت في سورة تبارك، قاطعني:

- هل تعلم أن لها سبعة أسماء (الملك - المنجية - المانعة - الدافعة - الشافعة - المجادلة - المخلصة).

- جميل، معلومة جديدة، اسمع لتفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ (الملك)، قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، قال ابن عباس: حزب ومنعة لكم - ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه، ولفظ الجند يوحد، ولهذا قال: هذا الذي هو جند لكم هو استفهام إنكاري، أي لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله من دون الرحمن أي من سوى الرحمن.

﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ من الشياطين تغرهم بألّا عذاب ولا حساب، قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ أي يعطيكم منافع الدنيا، وقيل المطر من آلهتكم.

﴿إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾ - يعني الله تعالى - ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ أي تمادوا وأصروا ﴿فِي عُتُوّٖ﴾ طغيان، ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ عن الحق.

بعد استيفاء غرض إثبات الإلهية الحق لله - تعالى - بالوحدانية وتذكيرهم بأنهم مفتقرون إليه انتقل إلى إبطال أن يكون أحد يدفع عنهم العذاب الذي توعدهم الله به، فوجّه إليهم استفهاماً، أن يدلّوا على أحد من أصنامهم أو غيرها يقال فيه هذا هو الذي ينصر من دون الله، فإنهم غير مستطيعين تعيين أحد لذلك إلا إذا سلكوا طريق البهتان وما هم بسالكيه.

وهذا الكلام ناشئ عن قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (الملك: ١٦)، فهو بين حجج الاستدلال، والاستفهام مستعمل في التعجيز عن التعيين فيؤول إلى الانتفاء والإشارة مشار بها إلى مفهوم جند مفروض في الأذهان استحضر للمخاطبين، فجعل كأنه حاضر في الخارج يشاهده المخاطبون، فيطلب المتكلم منهم تعيين قبيلة بأن يقولوا: بنو فلان، ولما كان الاستفهام مستعملاً في التعجيز استلزم ذلك أن هذا الجند المفروض غير كائن، وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ونحوه.

وكتب في المصحف ﴿أَمَّنۡ﴾ بميم واحدة بعد الهمزة وهما ميم (أم) وميم (من) المدغمتين بجعلهما كالكلمة الواحدة كما كتب ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ

﴿١﴾ (النبأ) بميم واحدة بعد العين، ولا تقرأ إلا بميم مشددة، إذ المعتبر في قراءة القرآن الرواية دون الكتابة، وإنما يكتب القرآن للإعانة على مراجعته، فالمعنى: ينصركم عند احتياجكم إلى نصره، فهذا وجه الجمع بين جملة ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ﴾ وجملة ﴿يَنصُرُكُم﴾ ولم يستغن بالثانية عن الأولى.

أي من هذا الجند فإنه أحقر من أن يعرف.

على نحو قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ (الأنبياء: ٤٣)، وذيل هذا الاعتراض بقوله: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾، أي ذلك شأن الكافرين كلهم وهم أهل الشرك منَ المخاطبين وغيرهم، أي في غرور من الغفلة عن توقع بأس الله تعالى أو في غرور من اعتمادهم على الأصنام، فكما غرّ الأمم السالفة دينهم بأن الأوثان تنفعهم وتدفع عنهم العذاب فلم يجدوا ذلك منهم وقت الحاجة، فكذلك سيقع لأمثالهم، قال تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَالُهَا ١٠﴾ (محمد)، ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣﴾ (القمر)، فتعريف (الكافرون) للاستغراق، وليس المراد به كافرون معهودون حتى يكون من وضع المظهر موضع الضمير.

والغرور: ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع، وتقدم في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ (آل عمران)، ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ وانتقال آخر والكلام على أسلوب قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ (الملك: ٢٠)، وهذا الكلام ناظر إلى قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ (الملك: ١٥)، ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾.

استئناف بياني وقع جواباً عن سؤال ناشئ عن الدلائل والقوارع والزواجر والعظات والعبر المتقدمة ابتداء من قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك: ٢) إلى هنا، فيتجه للسائل أن يقول: لعلهم نفعت عندهم الآيات والنذر، واعتبروا بالآيات والعِبر، فأجيب بإبطال ظنه بأنهم لجوّا في عتوٍّ ونفور.

يقال: لجّ في الخصومة من باب سمّع، أي اشتد في النزاع والخصام، أي استمروا على العناد يكتنفهم العتوّ والنفور، أي لا يترك مخلصاً للحق إليهم، فالظرفية مجازية، والعتوّ: التكبر والطغيان، والنفور: هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه. والمعنى: اشتدوا في الخصام متلبسين بالكبر عن اتباع الرسول ﷺ حرصاً على بقاء سيادتهم وبالنفور عن الحق لكراهية ما يخالف أهواءهم وما ألفوه من الباطل.

ما يملكون من قمطير!!

بفضل الله صمنا رمضان، وأقمنا الصلوات في المساجد: الجماعة والجمعة والتراويح والتهجد، بعد أن مُنعنا من أدائها رمضان الفائت (١٤٤١هـ). مع أن صلاة التراويح اختصرت إلى أقل من نصف ساعة والتهجد إلى أربعين دقيقة!

- من الحجج العقلية التي أقامها الله -عز وجل- على من يشرك به غيره، في الدعاء خاصة، أن من تدعون لا يملكون شيئاً، فكيف لهم أن ينفعوكم بشيء؟!

كنت في طريقي لقضاء أمر في أثناء ساعات الحظر الجزئي (٨ مساء - ٥ فجرا)، مررت على نقطتين للتدقيق، ولكن شباب الداخلية لم يطلبوا تصريحاً -مع أنه كان معي- ربما لكثافة لحيتي البيضاء!

أدرت المذياع فإذا مجموع من طلبة العلم يتدارسون تفسير آيات من كتاب الله -تعالى- وهي قوله -سبحانه-: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ (فاطرة). ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ أي هذا الذي من صنعه ما تقرر هو الخالق المدبر، والقادر المقتدر، فهو الذي يعبد. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام أو

أي مخلوق آخر تدعونه من دون الله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه. و(القطمير) القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة، قاله أكثر المفسرين، وقال ابن عباس: هو شق النواة، وقال قتادة: القطمير القمع الذي على رأس النواة. ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة، تنبت منها النخلة.

قوله -تعالى-: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع، وقال قتادة: المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم. وقيل: أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۖ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ أي يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرؤون منكم. ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل، كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين، أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي يُحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة. ومثل هذه الآية قوله -تعالى-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (سبأ).

قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم من قومك -والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب- الجاحدين نعمنا عندهم: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم شركاء لله -وهذا خطاب توبيخ- فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا، فإن لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنكم مبطلون؛ لأن الشركة في الربوبية لا تصلح ولا تجوز، ثم وصف الذين يدعون من دون الله فقال:

إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، نُفي عنهم ملك أحقر الأشياء وهو ما يساوي ذرة من السماء والأرض، والذرة: بيضة النمل التي تبدو حبيبة صغيرة بيضاء، أو ما دون ذلك، وتقدم عند قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦١﴾﴾ (يونس)، فكيف لهم أن يملكوا شيئاً من خيرٍ أو شرٍ أو ضرٍ أو نفعٍ، وكيف يكون إلهاً من كان كذلك؟!

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ ولا هم إذ لم يكونوا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض بملكه من دون الله يملكونه على وجه الشركة؛ لأن الأملاك في المملوكات لا تكون لمالكها إلا على أحد وجهين: إما مقسوماً، وإما مشاعاً، يقول: وآلهتهم التي يدعون من دون الله لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، لا مشاعاً ولا مقسوماً، فكيف يكون من كان هكذا شريكاً لمن له ملك جميع ذلك. وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾ يقول: وما لله من الآلهة التي يدعون من دونه معين على خلق شيء من ذلك، ولا على حفظه؛ إذ لم يكن لها ملك شيء منه مشاعاً ولا مقسوماً، فيقال: هو لك شريك من أجل أنه أعان وإن لم يكن له ملك شيء منه.

﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم﴾ من الذين يدعون من دون الله ﴿مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾ من عون بشيء. وأتبع ذلك بنفي أن يكون شفيع عند الله يضطره إلى قبول الشفاعة فيمن يشفع له لتعظيم أو حياء. فقال -عز وجل-: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ (سبأ). رد على قول المشركين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ

ٱللَّهِۚ ﴾ (يونس:١٨)، فنفيت شفاعتهم في عموم نفي كل شفاعة نافعة عند الله إلا شفاعة من أذن الله أن يشفع. وفي هذا إبطال شفاعة أصنامهم؛ لأنهم زعموا لهم شفاعة لازمة من صفات آلهتهم؛ لأن أوصاف الإله يجب أن تكون ذاتية فلما نفى الله كل شفاعة لم يأذن فيها للشافع انتفت الشفاعة المزعومة لأصنامهم.

وبهذا يندفع ما يتوهم من أن قوله: ﴿إِلَّا لِمَنۢ أَذِنَ لَهُۥ﴾ لا يبطل شفاعة الأصنام.

المقصود هنا إبطال رجائهم أن تشفع لهم آلهتهم عند الله فينتفعوا بشفاعتها؛ لأن أول الآية توبيخ وتعجيز لهم في دعوتهم الآلهة المزعومة فاقتضت إبطال الدعوة والمدعو.

وقد جمعت الآية نفى جميع أصناف التصرف عن آلهة المشركين كما جمعت نفى أصناف الآلهة المعبودة عند العرب، لأن من العرب صابئة يعبدون الكواكب وهي في زعمهم مستقرة في السماوات تدبر أمور أهل الأرض فأبطل هذا الزعم قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فأما في السماوات فباعترافهم أن الكواكب لا تتصرف في السماوات وإنما تصرفها في الأرض، وأما في الأرض فبقوله: ولا في الأرض. ومن العرب عبدة أصنام يزعمون أن الأصنام شركاء لله في الإلهية فنفى ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ ومنهم من يزعمون أن الأصنام جعلها الله شفعاء لأهل الأرض، فنفى ذلك بقوله: ولا تنفع الشفاعة عنده الآية.

ضعف الطالب والمطلوب!

- يعجب المرء من إصرار أهل الشرك على شركهم، رغم أن الأدلة على عجز من يدعون من دون الله واضحة وضوح الشمس، حتى يومنا هذا ونحن في العام ٢٠٢١م و١٤٤٣هـ، من البشر من يتقرب إلى أصنام صنعت من حجارة يزينونها، ويقدمون لها الأطعمة والأشربة والنقود، رغم فقرهم وعوزهم.

في بداية سورة الحج يقول الله - تعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وفي ختام السورة يقول - سبحانه - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾، فالدعوة واحدة، توحيد الله - عز وجل.

كنت وصاحبي في طريقنا لعمل فحص الخلو من (كورونا) استعداداً لأول سفر لنا بعد عامين من الإغلاق والحجر والإجراءات التي اتخذها العالم أجمع لمواجهة جائحة كورنا من بداية (٢٠٢٠) للميلاد.

- أظن أن عَمَى البصيرة، وتقليد الآباء والتكبر والمصالح الدنيوية، متفرقة أو مجتمعة، أسبابٌ لإصرار الناس على عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وهذه الآيات من سورة الحج تبين حالة من هذه الحالات التي يقع فيها كثير من الناس، يقول الله - تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ (الحج)، قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ (الحج: ٧١)، وإنما قال ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ﴾، لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب

الأمثال أقرب إلى أفهامهم، والمعنى: ضرب الله – عز وجل – لما يعبد من دونه مثلاً، أي بيّن الله لكم شبهاً لمعبودكم.

يقول: إن جميع ما تعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام لو اجتمعت لم يخلقوا ذباباً في صغره وقلته، لأنها لا تقدر على ذلك ولا تطيقه، ولو اجتمعتم لخلقه جميعاً، والذباب واحد، وجمعه في القلة أذبة وفي الكثرة ذبان مثل غُراب، يجمع في القلة أغربة، وفي الكثرة غربان.

قال ابن عباس معناه: وعجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه، والمطلوب: الذباب.

والمراد الأوثان التي عبدوها من دون الله، وكانت حول الكعبة وهي ثلاثمائة وستون صنماً.

كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فتجف فيأتي الذباب فيختلسه، وقال السدي: كانوا يجعلون للأصنام طعاماً فيقع عليه الذباب فيأكله.

وخص الذباب لأربعة أمور تخصه، لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله – عز وجل – على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأرباباً مطاعين، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان.

والخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ للمشركين، لأنهم المقصودون بالرد والزجر وبقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وبني فعل ﴿ضُرِبَ﴾ بصيغة النائب فلم يذكر له فاعل، بعكس ما في

المواضع الأخرى التي صرح فيها بفاعل ضرب المثل نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ (البقرة: ٢٦)، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ (النحل: ٧٥)، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا﴾ (الزمر: ٢٩)، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ (النحل: ٧٦).

لأن المقصود هنا نسج التركيب على إيجاز صالح لإفادة أن يقدر الفاعل الله – تعالى – وأن يكون المثل تشبيهاً تمثيلياً، أي أوضح الله تمثيلاً يوضح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكل أحد.

قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ لاسترعاء الأسماع إلى مفاد هذا المثل مما يبطل دعوى الشركة لله في الإلهية، أي استمعوا استماع تدبر.

واستعملت صيغة الماضي في (ضرب) مع أنه لم يقل لتقريب زمن الماضي من الحالة كقوله: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ (النساء)، أي لو قاربوا أن يتركوا، وذلك تنبيه للسامعين بأن يتهيؤوا لتلقي هذا المثل – وفي الحديث في المصورين قال الله تعالى: «فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة» (البخاري)، فهو في سياق التعجيز، لأن الحبة لا حياة فيها والذرة فيها حياة ضعيفة. وجملة ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ تذييل للغرض من التمثيل، أي ضعف الداعي والمدعو، إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، أي ضعفتم أنتم

في دعوتهم آلهة وضعفت الأصنام عن صفات الإله، وهذه الجملة كلام أرسل مثلاً، وذلك من بلاغة الكلام.

لقد ذكرتني بحال قوم إبراهيم - عليه السلام - عندما اجتمعوا ليحاسبوه على تحطيم أصنامهم فقال لهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنبياء)، ومع ذلك انتصروا للحجارة، وألقوا إبراهيم - عليه السلام - في النار التي أصبحت برداً وسلاماً عليه بأمر الله.

فأتنا بما تعدنا!!

- آيات كثيرة في كتاب الله -عز وجل- تُبين ما أصاب النبي ﷺ من همّ وغمّ نتيجة إعراض قومه عن دعوته، مع حرصه الشديد على هدايتهم ورحمته بهم، كما قال -تعالى-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة)، ومن تلك الآيات قوله -سبحانه-: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف)، وقوله -سبحانه-: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (الشعراء)، وكذلك قوله -عز من قائل-: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام)، وقوله -سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ (هود).

كنت وصاحبي في طريقنا نزور أخاً لنا، أدخل والده العناية الفائقة بعد إصابته بفيروس كورونا، ودخل في غيبوبة لأكثر من ثلاثة أسابيع، نواسيه ونخفف عنه مصابه.

- وقد أخبر الله -عز وجل- نبيّنا ما أصاب أقوام إخوانه الأنبياء قبله، تسليةً له، وتخفيفاً لما يجد من قومه، وتحذيراً للكفار منهم إن هم استمروا في غيّهم، فذكر قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، قال الله -تعالى- في قوم نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (نوح). وفي عاد قوم هود قال -تعالى ذكره-: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ (الأعراف). ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأحقاف). وفي ثمود قوم صالح: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (الأعراف).

يقول -تعالى ذكره-: قال قوم نوح: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا فأتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين في دعواك أنّك لله رسول، يعني بذلك أنه لن يقدر على شيء من ذلك فطلبوا العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه، فقال لهم: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ (الأعراف: ٧١)، ومعنى وقع أي وجب، فأغرقهم الله جميعاً إلا من ركب السفينة مع نوح إيماناً به واتباعاً له ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾ (هود). وقالت عاد لهود: أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصاً، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها ونتبرأ منها؟ فلسنا فاعلي ذلك ولا متبعيك على ما تدعونا إليه، فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد، وعقبوا كلامهم بالشرط فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ استقصاء لمقدرته قصدٌ منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب، فلا يسعه إلا الاعتراف بأنه كاذب، فأجابهم أن الله قد غضب عليهم، وأنهم وقع عليهم رجس من الله.

فأرسل الله عليهم ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ (الحاقة)، وأما ثمود قوم صالح فعزموا على المصير إلى النكاية والإغاظة له -عليه السلام- ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة التي جعلها صالح -عليه السلام- لهم آية، وأقامها -بينه وبينهم- علامة موادعة ما داموا غير متعرضين لها بسوء، ومقصدهم من نيتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آية صالح -عليه السلام-؛ لِئَلّا يزيد عدد المؤمنين به؛ لأن مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائِهم وتقريرهم لها على مرعاها وشربها، ولأن في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بحفزهم للإضرار بصالح -عليه السلام- وبمن آمن به بعد ذلك، وليُروا صالحاً -عليه السلام- أنهم مستخفون بوعيده؛ إذ قال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأعراف).

والضمير في قوله: ﴿فَعَقَرُوا﴾ عائد إلى الذين استكبروا (الأعراف:٧٥)، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحداً منهم؛ لأنه كان عن تمالؤ ورضى من الكبراء، كما دل عليه قول -تعالى- في سورة القمر (٢٩): ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، وفي حديث البخاري أن النبي ﷺ ذكر في خطبته الذي عقر الناقة فقال: «انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه» (عارم: جبار) (صحيح الترمذي).

والعُتوّ تجاوز الحد في الكبر، و﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ هو ما أمرهم به على لسان صالح -عليه السلام- من قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ (الأعراف:٧٣)، وقد فرضوا كونه من المرسلين بحرف (إنْ) الدال على الشك في حصول الشرط،

أي إن كنت من الرسل عن الله فالمراد بالمرسلين من صدق عليهم هذا اللقب، وهؤلاء لجهلهم بحقيقة تصرف الله -تعالى- وحكمته، يحسبون أن تصرفات الله كتصرفات الخلق، فإذا أرسل رسولاً ولم يصدقه المرسل إليهم غضب الله وأنزل العقاب إليهم، ولا يعلمون أن الله يمهل الظالمين ثم يأخذهم متى شاء.

وجملة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ معترضة بين جملة فعقروا الناقة وبين جملة ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ (الأعراف:٧٩) أريد باعتراضها التعجيل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم بعقب عتوّهم أي لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن طويلة، كان بينهما ثلاثة أيام، كما ورد في آية سورة هود: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾، فإن صالحاً قال لهم: إنه بقي من عمركم ثلاثة أيام. وقيل: عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (النمل).

لذلك لم يُجب النبي ﷺ لكفار قريش مطلبهم رحمة بهم وخوفاً عليهم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوه، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم» (السلسلة الصحيحة).

فماذا بعد الحق إلى الضلال؟

إبنُ أخي (علي) كان طالباً في إحدى الشعب التي درستها قبل سبع سنوات، ولدٌ مؤدب، خلوق، هادئ، لديه بعض التساؤلات في العقيدة، ولاسيما فيما يتعلق بآل البيت والصحابة، وكيفية موالاة آل البيت، في أثناء تدريسي له في المرة الأولى لم يكن جاداً في تحصيله العلمي؛ ربما لعدم قدرته على تنظيم وقته بين العمل والأسرة والدراسة، رسب في المقرر معي، عاتبني كثيرٌ من أقرب رحمي، ولكن بقيت درجة الرسوب، في العام التالي نال الامتياز، واستمر في أدائه إلى أن نال الشهادة الجامعية.

– لقد تعلمت منك يا عمي، درساً نفعني في دراستي وطوال حياتي.

– أرجو أن تستفيد منه لا في عملك فحسب، بل في تعاملك، ودينك وعقيدتك، فالحق لا يمكن أن يخالطه باطل.

دار الحوار بيننا، قبل أن يجتمع بقية الإخوة والأقارب لعشاء الخميس، كان منصتاً، وهكذا هو معي، ولكن إذا اختلط بوالده وأهل زوجته، يتأثر أيضاً.

– اسمع يا (أبا حيدر) هذه الآيات من سورة يونس.. يقول –تعالى–:
﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (يونس).

لما بيّن الله –عز وجل– فضائح المشركين، أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء والإعادة والإرشاد،

والهدى، وبنى -سبحانه- الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤولين ليكون أبلغ في إلزام الحجة، وأوقع في النفوس، فقال: (قل) يا محمد للمشركين احتجاجاً لأحقية التوحيد، وبطلان ما هم عليه من الشرك ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات والمعادن، فإن اعترفوا حصل المطلوب، وإن لم يعترفوا: فلا بد أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وخص السمع والبصر بالذكر؛ لما فيهما من الصنعة العجيبة، والقدرة الباهرة العظيمة، أي: من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة، والخلقة الغريبة حتى ينتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم، ويحصلوا بهما من الفوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين؟

ثم انتقل إلى حجة ثالثة، فقال: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؟ الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والنبات من الحبة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؟ أي: النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن.

ثم انتقل إلى حجة رابعة، فقال: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؟ أي: يقدّره ويقضيه، وهذا من عطف العام على الخاص؛ لأنه قد عمّ ما تقدم وغيره: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات: أن الفاعل لهذه الأمور هو الله -سبحانه- إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح، والعقل السليم.

ثم أمره الله -سبحانه- بعد أن يجيبوا بهذه الجواب أن يقول لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾؟ والاستفهام للإنكار، أي: تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون

ما يوجبه هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الذي يفعل هذه الأفعال هو ربكم المتصف بأنه الحق، لا ما جعلتموهم شركاء له، والاستفهام في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؟ للتقريع والتوبيخ والمعنى: أي شيء بعد الحق إلا الضلال؟ فإن ثبوت ربوبية الرب -سبحانه- حق بإقرارهم فكان غيره باطلاً: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر، وتقعون في الضلال؛ إذ لا واسطة بينهما؟ فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (يونس) أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، كذلك حقت كلمة ربك أي: حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا، أي: خرجوا من الحق إلى الباطل، وتمردوا في كفرهم عناداً ومكابرة، أنهم لا يؤمنون، أو: لأنهم لا يؤمنون.

ثم انتقلت الآيات إلى أسلوب التحدي فقال -عز وجل-: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ (يونس:٣٤)، أورد -سبحانه- في هذا حجة خامسة على المشركين، أمر نبيه ﷺ أن يقولها لهم، وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد، لكنه لما كان أمراً ظاهرا بيّنا، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف، أمره -سبحانه- أن يقول لهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (يونس) أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره، وهذا القول الذي قاله النبي ﷺ من أمر الله -سبحانه- له هو نيابة عن المشركين في الجواب، إما: على طريق التلقين لهم، وتعريفهم كيف يجيبون، وإما: لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم، ومعرفة ما لديه، وإما: لكون المشركين لا ينطقون بما

هو الصواب في هذا الجواب فراراً منهم عن أن تلزمهم الحجة، أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق وانفلتوا منه إلى غيره.

ثم أمره الله -سبحانه- أن يورد عليهم حجة سادسة فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ (يونس:٣٥) والاستفهام ها هنا كالاستفهامات السابقة، والاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا في القرآن كقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ (الشعراء)، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (طه)، والمعنى: قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا لا، فقل لهم: ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ دون غيره، وهداية الله -سبحانه- لعباده إلى الحق هي: بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسل، وإنزاله للكتب، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ للتقرير، وإلزام الحجة، وأصل (يهدِّي) يهتدي، أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء.

والمعنى أفمن يهدي الناس إلى الحق، وهو الله -سبحانه- أحق أن يتبع، أم الأحق بأن يتبع ويقتدي به من لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلاً عن أن يهدي غيره؟ قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (يونس)، هذا تعجب من حالهم باستفهامين متواليين: أي شيء لكم، كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله؟ وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ، ثم بيّن -سبحانه- ما هؤلاء عليه في أمر دينهم، وعلى أي شيء بنوه، وبأي شيء اتبعوا هذا الدين الباطل، وهو الشرك فقال: وما يتبع أكثرهم إلا ظنّاً إن الظن لا يغني من الحق شيئا.

طلبوا العذاب.. فجاءهم العذاب!

في الحديث عن ابن عباس قال: «قال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا رسول الله، قد شبت! قال ﷺ: شيبتني (هود) وأخواتها.. وفي رواية (هود) و(الواقعة) و(المرسلات) و(عم يتساءلون) و(إذا الشمس كورت)» السلسلة الصحيحة.

وفي بيان سبب قوله ﷺ: شيبتني، قال ﷺ: قوله -تعالى-: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ (هود).

وذلك أن هذه السورة تذكُر هلاك الأمم السابقة وأهوال يوم القيامة، وهذه إحدى غايات آي الذكر الحكيم، تثبيت النبي ﷺ وتسليته بذكر أحوال الأنبياء قبله مع أممهم، وجاء ذكر معظم الأمم السابقة في سورة الأعراف، وسورة هود.

كنت وأبو عمر (مؤذن مسجدنا الجديد)، في أول مجلس عِلم بين العشائين في مكتبة المسجد، وكعادته كان (حمد) وجار المسجد (محمد) معنا.

قلّبت كتب التفسير في جهاز الحاسوب الذي أوقفه أحد المصلين للمسجد، لكل طالب علم يريد أن يستخدمه فيما يرضي الله.

بدأت أقرأ الآيات من سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى

مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (الأعراف).

وفي تفسير هذه الآيات ورد ما يلي في بيان ما حصل بين نبي الله هود -عليه السلام- وقومه عاد، بدأ الحوار بأن أخبرهم أنه مرسل من عند الله بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، فما كان منهم إلا أن تحدوه وكابروا؛ فطلبوا العذاب الذي خوّفهم به وحذرهم منه. فقال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾، ومعنى وقع أي وجب. يقال: وقع القول والحكم أي وجب. ومثله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ (الأعراف:١٣٤)، أي نزل بهم، وكذلك: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (النمل).

و(الرجس) العذاب وقيل: الرجس الرين على القلب بزيادة الكفر، جاوبوا هوداً بما أنبأ عن ضياع حجته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتوحيد، وهذا الجواب أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأول؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأعراف)، كأنهم راموا استنزال نفس هود ومحاولة إرجاعه عما دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار، وذكّروه بأن الأمر الذي أنكره هو دين آباء الجميع تعريضاً بأنه سفه آباءه، كما قال الملأ من قريش لأبي طالب حين دعاه النبي ﷺ أن يقول: «لا إله إلا الله» عند احتضاره فقالوا لأبي طالب: «أترغب عن ملة عبدالمطلب؟».

واجتلاب (كان) لتدل على أن عبادتهم أمر قديم مضت عليه العصور. ومعنى (أجئتنا) أقصدت واهتممت بنا لنعبد الله وحده؟ فاستعير فعل

المجيء لمعنى الاهتمام والتحفز والتصلب، فقصدوا مما دل عليه فعل المجيء زيادة الإنكار عليه وتسفيهه على اهتمامه بأمرٍ مثلما دعاهم إليه، و(وحده) حال من اسم الجلالة وهو اسم مصدر (أوحدَه): إذا اعتقده واحداً، والفاء في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ لتفريع طلب تحقيق ما توعدهم به، وتحدياً لهود، وإشعارًا له بأنهم موقنون بألّا صدق للوعيد الذي يتوعدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب فالأمر في قلوبهم (فأتنا) للتعجيز.

والإتيان بالشيء حقيقته أن يجيء مصاحباً إياه، ويستعمل مجازاً في الإحضار والإثبات كما هنا، والمعنى فعجِّل لنا ما تعدنا به من العذاب، أو فحقق لنا ما زعمت من وعيدنا، ونظيره الفعل المشتق من المجيء مثل ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ (هود:٥٣)، وأسندوا الفعل إلى ضميره تعريضاً لأن ما توعدهم به هو شيء من مختلقاته وليس من قبل الله -تعالى-؛ لأنهم يزعمون أن الله لا يحب منهم الإقلاع عن عبادة آلهتهم، لأنه لا تتعلق إرادته بطلب الضلال في زعمهم.

والوعد الذي أرادوه وعدٌ بالشر، وهو الوعيد، ولم يتقدم ما يفيد أنه توعدهم بسوء، فيحتمل أن يكون وعيداً ضمنياً تضمنه قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأعراف)؛ لأن إنكاره عليهم انتفاء الاتقاء دليل على أن ثمة ما يحذر منه، ولأجل ذلك لم يعينوا وعيداً في كلامهم بل أبهموه بقولهم بما تعدنا، ويحتمل أن يكون الوعيد تعريضاً من قوله: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ (الأعراف:٦٩)، المؤذن بأن الله استأصل قوم نوح وأخلفهم بعاد، فيوشك أن يستأصل عاداً ويخلفهم بغيرهم.

وعقّبوا كلامهم بالشرط فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ استقصاء لمقدرته قصداً منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب فلا يسعه إلا الاعتراف بأنه كاذب، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله تقديره: أتيت به وإلا فلست بصادق.

فأجابهم بأن أخبرهم بأن الله قد غضب عليهم، وأنهم وقع عليهم رجس من الله.

والأظهر أن (وقع) معناه حق وثبت، من قولهم للأمر المحقق: هذا واقع، وقولهم للأمر المكذوب: هذا غير واقع، فالمعنى حق وقدر عليكم رجس وغضب.

فـ(الرجس) هو الشيء الخبيث، أطلق هنا مجازاً على خبث الباطن، أي فساد النفس كما في قوله -تعالى-: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ (التوبة:١٢٥)، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ (الأنعام)، والمعنى أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم فلا يقبلون الخير ولا يصيرون إليه، وعن ابن عباس أنه فسر الرجس هنا باللعنة، والجمهور فسروا الرجس هنا بالعذاب، فيكون فعل: وقع من استعمال صيغة الماضي في معنى الاستقبال، إشعاراً بتحقيق وقوعه.

وقد أخبر هود بذلك عن علم بوحي في ذلك الوقت أو من حين أرسله الله، إذ أعلمه بأنهم إن لم يرجعوا عن الشرك بعد أن يبلغهم الحجة فإن عدم رجوعهم علامة على أن خبث قلوبهم متمكن لا يزول، ولا يرجى منهم إيمان، كما قال الله لنوح: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (هود). وتأخير الغضب عن الرجس لأن الرجس هو خبث نفوسهم، سبب استحقاقهم لغضب الله عليهم واقترانه بـ(قد) للدلالة على تقريب زمن الماضي من الحال: مثل (قد قامت الصلاة). وتقديم: (عليكم) على (من ربكم) للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب، إيقاظاً لبصائرهم لعلهم يبادرون بالتوبة.

ونزل مثل هذه الآيات على النبي ﷺ في بيان حال من كفر من قومه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج).

قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وقيل: نزلت في أبي جهل بن هشام، وهو قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي في إنزال العذاب، قال الزجاج: استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء، وقد نزل بهم في الدنيا يوم بدر. وفي الحديث عن ابن عباس، قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك، قال: «أتفعلون؟»، قالوا: نعم فدعا، فأتاه جبريل، فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح الصفا ذهباً فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، قال: «بل أبواب التوبة والرحمة» (السلسلة الصحيحة).

وهكذا حال الأمم الكافرة تتحدى أمر الله عناداً وتكبراً وتطلب تعجيل العذاب ولكن الله الحكيم الحليم جعل لكل شيء أجلاً.

فأمطر علينا حجارة من السماء!

من جهل أصحاب الشبهات، أن يتعاملوا مع الله -عز وجل- كما يتعاملون مع أقرانهم ومنافسيهم، فمن ينكر منهم البعث «يتحدى» أن يحيي الله الموتى أمامه ليثبت عكس ذلك، ومن ينكر عذاب الله على كفره، يتحدى الله أن ينزل عليه العذاب في الدنيا، وهذه الحجج قديمة حديثة، لا زال أهل الغي يرددونها، وسمعتها من أحدهم وهو يحمل شهادة الدكتوراة في الفلسفة واسمه (محمد)!.

- كلما رأيت أو سمعت أمثال هؤلاء دعوت الله صادقاً «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، والمصيبة أنهم لا يقرؤون القرآن، ولا يقربون الصلاة، ولا يفقهون شيئاً من دين الله، ويقفون أمام تلاميذ الجامعة يعلمونهم ويختبرونهم.

كنت وصاحبي في نقاش جانبي قبل بدء اجتماع لجنة النشاط العلمي للقسم، وصلنا قبل موعد الاجتماع.

- لو كان عند هؤلاء شيء من الفطرة السليمة لأبقوا لأنفسهم (خط رجعة)، ولم يتحدوا الله فيما أخبر عنه من المغيَّبات.

- إنه العناد والمكابرة، الذي إذا تمكن من المخلوق أعماه، وقاده إلى هلاكه، ولا يتوقف حتى يرى الحقيقة المؤلمة، حينها يتحسر ويندم ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.. اسمع قول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال). يقول -تعالى ذكره-: ويستعجلك يا محمد مشركو قومك بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال)، وهم يعلمون ما حلّ بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها، وكذبت رسلها من عقوبات الله وعظيم بلائه، فمن بين أمة مُسخت قردة وأخرى خنازير، ومن بين أمة أهلكت بالرجفة، وأخرى بالخسف، وذلك هو المثلات التي قال الله -جل ثناؤه-: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ (الرعد:٦)، والمثلات: العقوبات المنكلات.

قل لهم: إن لهذا أجلاً، حين سألوا الله أن ينزل عليهم، فقال: بل نؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، فقالوا: لا نريد أن نؤخر إلى يوم القيامة ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ عذابنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ (ص)، وقرأ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (العنكبوت).

فالآية نزلت ذامّة لخلق ذميم هو في بعض الناس، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في

الشر، فلو عجل لهم لهلكوا. الثانية- واختلف في إجابة هذا الدعاء، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب، قال ابن عباس: يعني هو ما وعدتك ألّا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة.

معنى كلامهم: إن هذا القرآن ليس حقاً من عندك فإن كان حقاً فأصبنا بالعذاب، وهذا يقتضي أنهم قد جزموا بأنه ليس بحق، وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أن الله يتصدى لمخاطرتهم، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة -إن كان القرآن حقاً منه- أمطر عليهم الحجارة وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقية القرآن؛ فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقاً من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله، وذلك في معنى القسم.

فهم غير جازمين بأن القرآن حق ومنزل من الله، بل هم موقنون بأنه غير حق. و(من عندك) حال من (الحق) أي منزلاً من عندك فهم يطعنون في كونه حقاً وفي كونه منزلاً من عند الله. وقوله: (من السماء) وصف لحجارة أي حجارة مخلوقة لعذاب من تصيبه لأن الشأن أن مطر السماء لا يكون بحجارة كقوله -تعالى-: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ (الفجر) (والصب قريب من الأمطار).

وذكروا عذاباً خاصاً وهو (مطر الحجارة) ثم عمموا فقالوا: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، ويريدون بذلك كله عذاب الدنيا؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. ووصفوا العذاب بالأليم زيادة في تحقيق يقينهم بأن المحلوف عليه

بهذا الدعاء ليس منزلاً من عند الله فلذلك عرضوا أنفسهم لخطر عظيم على تقدير أن يكون القرآن حقاً ومنزلاً من عند الله.

وكان العذاب قد تأخر عنهم زمناً اقتضته حكمة الله، بيّن الله لرسوله ﷺ في هذه الآية سبب تأخر العذاب عنهم حين قالوا ما قالوا، وأيقظ النفوس إلى حلوله بهم وهم لا يشعرون.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ كناية عن استحقاقهم، وإعلامٌ بكرامة رسوله ﷺ عنده؛ لأنه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سبباً في تأخير العذاب عنهم، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ فجعل وجوده في مكان مانعاً من نزول العذاب على أهله، فهذه الآية إخبار عما قدره الله فيما مضى.

وأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فقد أشكل على المفسرين نظمها، فإنه لا يستغفر الله إلا المسلمون فالمعنى استغفار من حل بينهم من المسلمين، بناء على أن المشركين لا يستغفرون الله من الشرك، والذي يظهر أنها جملة معترضة انتهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، فبعد أن هدد المشركين بالعذاب ذكّرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربهم بأن يؤمنوا بأنه واحد، ويصدقوا رسوله، فهو وعد بأن التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب، وتكون لهم أمناً وذلك هو المراد بالاستغفار؛ إذ من البيّن أن ليس المراد بـ (يستغفرون) أنهم يقولون: نستغفر الله ونحوه؛ إذ لا عبرة بالاستغفار بالقول والعمل يخالفه، فيكون قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

﴿٣٣﴾﴾ تحريضاً وذلك في الاستغفار وتلقيناً للتوبة زيادة في الإعذار لهم على معنى قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ (النساء)، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (الأنفال). وقد دلت الآية على فضيلة الاستغفار وبركته بإثبات أن المسلمين أمنوا من العذاب الذي عذب الله به الأمم؛ لأنهم استغفروا من الشرك باتباعهم الإسلام.

قل كونوا حجارة أو حديداً!

- مسألة البعث بعد الموت، أنكرها أقوام، وشك فيها آخرون، حتى أيامنا هذه، مع أن المنكِر لا حجة منطقية له، والله -عز وجل- أمر جميع رسله بتبليغها، ورسولنا ﷺ بيّن لنا -بالتفصيل- ما الذي يحدث للعبد منذ الاحتضار وحتى المستقر، ولكن أهل الأهواء والعناد والكِبر يتبعون أهواءهم، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠).

- هذه من أركان الإيمان الستة، التي إذا انتقض أحدها، انتقض صرح الإيمان، أليس كذلك؟

- بلى، وهو ركنٌ تحدّى به الله من أنكره، وأقام عليهم الحجة، في آيات كثيرة من كتابه العزيز، وقد حفظه إلى يوم القيامة؛ فالحجة والتحدي قائمان على الجميع، ما دامت السماوات والأرض، يقول -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ (الأحقاف). ويقول -سبحانه-: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (القيامة).

وقال عزَّ وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ (الروم). ويقول -سبحانه-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْۦِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (يس). وهكذا لو تدبر المعاند، للحظة وآمن بقضيتين:

- **الأولى**: أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء.

- **والثانية**: أن الله هو الذي بدأ الخلق، فهو يعيده.

وبالتجرد عن الهوى يتوصل إلى الإيمان بالبعث كما أخبر الله، ومن أَبَى الإيمان، وأوغل في الجحود والنكران، تحداه الله كما في الآيات من سورة الإسراء. ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢﴾ (الإسراء).

ففي هذه الآيات تحدٍّ لمن ينكر البعث، وفي التفسير:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ بعد الموت، قال مجاهد: تراباً، وقيل: حطاماً. والرفات: كل ما يكسر ويبلى كالفتات والحطام.

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩﴾. قل لهم يا محمد ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠﴾، في الشدة والقوة، وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز، أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة.

﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾، قيل السماء والأرض والجبال، وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين: إنه الموت، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، أي: ولو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾؟ من يبعثنا بعد الموت؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ﴾،

أي خلقكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾، ومن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة، ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾، أي: يحركونها إذا قلت لهم ذلك مستهزئين بها، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟ أي: البعث والقيامة، قل عسى أن يكون قريباً، أي: هو قريب؛ لأن عسى من الله واجب، نظيره قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾ (الأحزاب).

- لا إله إلا الله، حقاً إذا دخل الكِبر والعناد والهوى قلب الإنسان وتمكن منه، لا يرى الحق، وإن كان كالشمس في رابعة النهار!

كنت وصاحبي (أبو عبدالله) في جولة، نريد قضاء بعض حاجات المنزل، وصلنا إلى مركز التسوق الذي نريد، أدينا صلاة الظهر، ولم نمكث سوى نصف ساعة، ورجعنا إلى مركبتنا.

- ليتك تزيدنا من التعليق على هذه الآيات من سورة الإسراء.

- دعني أرى ما يمكن إيجاده في الهاتف.

قال الطبري: أي إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم، وقال علي بن عيسى: معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله -عز وجل- إذا أرادكم، إلا أنه خرج مخرج الأمر؛ لأنه أبلغ في الإلزام، وقيل: معناه لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم.

وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث؛ فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارة أو حديداً لبعثتم كما خلقتم أول مرة.

قال سعيد بن جبير: يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم. وقال ابن عباس: «بحمده» بأمره، أي تقرون بأنه خالقكم، وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقيل: المعنى بقدرته، وقيل: بدعائه إياكم، قال علماؤنا: وهو الصحيح، فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور، والحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله -تعالى-: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ فيقومون يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ يعني بين النفختين، وذلك أن العذاب يكف عن المعذبين بين النفختين، وذلك أربعون عاما فينامون، فذلك قوله -تعالى-: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (يس: ٥٢) فيكون خاصاً للكفار، وقال مجاهد: للكافرين هجعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور قاموا مذعورين، وقال قتادة: المعنى أن الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة، قال الحسن: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معناها توقنون في هذا الموضوع وما شابهه في كتاب الله مثل قوله -تعالى-: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ (الكهف).

أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟

منذ انتشار فيروس كورونا في فبراير ٢٠٢٠ من العام الميلادي، تغيرت أمورٌ كثيرة في العالم أجمع، توقفت حركة الطيران؛ فقبعت الطائرات جميعها على الأرض، ولم يجدوا أماكن لتخزينها، وتوقفت حركة البضائع، فتوقفت المصانع، وخلت المخازن، وتوقفت حركة العالم، في مشهد لم يكن يتصوره أحد، حتى بيت الله الحرام خلا من الطائفين، فضلاً عن العاكفين والركع السجود، كل ذلك وهذا الفيروس لا يُرى بالعين المجردة؛ فبضعة جرامات منه أوقفت العالم، وأعجزت الأطباء، وأرهقت الخدمات الصحية لدى أكثر الدول تقدماً، ولكن الإنسان يأبَى أن يعترف بعجزه، منذ نزل إلى الأرض وإلى يوم القيامة.

بلغنا الشهر العاشر بعد جائحة كورونا، وعادت الحياة إلى طبيعتها بنسبة (٧٠٪)؛ فلا زالت المدارس والجامعات مغلقة، ولا زالت الجهات الحكومية تطلب مواعيد مسبقة لمن يريد زيارتها.

كنت وصاحبي في طريقنا لأداء صلاة العشاء في المسجد، ويقف كل مصل على بعد مترين من صاحبه، ويلتزم بلبس الكمام وإحضار سجادته الخاصة به، فلما انتهينا من صلاة العشاء بعد الساعة السادسة والنصف بقليل، قررنا أن نمشي ساعة قبل الرجوع إلى منازلنا.

-الآيات التي قرأها إمامنا من سورة فصلت، فيها الكثير من العبر في مصير الأمم التي تتحدى الله -عز وجل.

- صدقت، وفي قصص الأمم السابقة عبرة، وذلك أن بعض تلك

الحضارات بلغت مراتب في العلم والقوة، ربما أكبر مما عليه البشر أيامنا هذه.

- دعنا نتدبر تفسير هذه الآيات لعل الله ينفعنا بها.

- لك ذلك يا (أبا عبدالله)، فكتب التفسير كلها أصبحت بفضل الله محمولة في جيوبنا، يقول -تعالى-: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ (فصلت).

قوله -تعالى-: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه بغير الحق، وقالوا من أشد منا قوة؟! اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا . وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخَلق عظيم.

عن ابن عباس: أن أطولهم كان مائة ذراع، وأقصرهم كان ستين ذراعاً؛ فقال الله -تعالى- رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ وقدرة، وإنما يقدر العبد بإقدار الله، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي بمعجزاتنا يكفرون.

قوله -تعالى-: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي: ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

قوله -تعالى-: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي بيّنا لهم الهدى والضلال، ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان، وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة.

يقال: (عذابٌ هون) أي مهين كمال قال: ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ (سبأ)، وقيل أي صاعقة العذاب الهون. ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة، على ما تقدم. ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يعني صالحا ومن آمن به، أي ميزناهم عن الكفار، فلم يحل بهم ما حل بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم.

والاستكبار: المبالغة في الكبر أي التعاظم واحتقار الناس؛ فالسين والتاء فيه للمبالغة، والتعريف (في الأرض) للعهد، أي أرضهم المعهودة، وإنما ذكر من مساويهم الاستكبار؛ لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله.

أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟(٢)

مـازال الحديث موصـولاً عن تدبر الآيـات من سـورة فصلت والتي تتحدث عن مصير الأمم التي تحدت الله -عزوجل-، ووقفنا عند قوله تعالى:﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ (فصلت: ١٥)، وقوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم؛ فإن الاستكبار لا يكون بحق؛ إذ لا مسوغ للكبر بوجه من الوجوه؛ لأن الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص، وليس للضعيف الناقص حق في الكبر؛ ولذلك كان الكبرياء من صفات الله -تعالى.

وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم، وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى قوله: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فقولهم ذلك سبب استكبارهم؛ لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظُم عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم؛ فكذبوا رسولهم.

فلما كان اغترارهم بقوتهم باعثَهم على الكفر وكان قولهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ دليلاً عليه خص بالذكر.

وإجـراء وصف ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾ على اسم الجلالة؛ لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم؛ فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافياً في الدلالة على أنه أشد منهم قوة، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه فينظروا في أدلة صدق رسوله إليهم. ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنه أنذرهم عذاباً يأتيهم من

السماء، قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ (الأحقاف)، فذلك من تكذيبهم بأوائل الآيات.

ويحتمل أن المراد بالآيات دلائل الوحدانية التي في دعوة رسولهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم كقوله -تعالى-: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ﴾ (الأعراف:٦٩)، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ (الشعراء).

فأهلكهم الله بما لا يترقب الناس الهلاك به فإن الناس يقولون للشيء الذي لا يؤبه به: هو ريح، ليريهم أن الله شديد القوة، وأنه يضع القوة في الشيء الهين، مثل: الرياح، ليكون عذاباً وخزياً، أي تحقيراً كما قال: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾، وأي خزي أشد من أن تتراماهم الريح في الجو كالريش، وأن تلقيهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم، فيشاهدهم المارون بديارهم جثثاً صرعى، قد تقلصت جلودهم، وبليت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية!!

قال النبي ﷺ: «**نُصرت بالصَّبا** (أي بريح تأتي من الشرق) **وأهلكت عاد بالدبور** (أي بريح تأتي من الغرب)» (متفق عليه).

فمعنى وصف الأيام بالنحسات: أنها أيام سوء، وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله -تعالى-: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ (الحاقة)، فالمراد: أن تلك الأيام بخصوصها كانت نحساً، وأن نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض؛ لأن عاداً هم المقصودون بالعذاب.

ولما كان حال الأمتين واحداً في عدم قبول الإرشاد من جانب الله -تعالى- كما أشار إليه قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ (فصلت)، كان الإخبار عن ثمود بأن الله هداهم مقضياً أنه هدى عاداً مثل ما هدى ثمود، وأن عاداً استحبوا العمى على الهدى مثلما استحبت ثمود.

والمعنى: وأما ثمود فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم، وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

فأخذتهم صاعقة العذاب الهون، وكان العقاب مناسباً للجرم؛ لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى، فمن يستحبه فشأنه أن يحب العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة؛ لأنها تعمي أبصارهم حين تهلكهم، والعذاب هو: الإهلاك بالصعق، ووصف (بالهون) كما وصف العذاب (بالخزي) في قوله: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ (فصلت:١٦)، أي العذاب الذي هو سبب الهون، والهون: الهوان وهو الذل، ووجه كونه هواناً أنه إهلاك فيه مذلة؛ إذ استؤصلوا عن بكرة أبيهم، وتركوا صرعى على وجه الأرض كما بيناه في مهلك عاد، أي أخذتهم الصاعقة بسبب كسبهم في اختيارهم البقاء على الضلال بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته.

ويعلم من قوله في شأن عاد: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ (فصلت:١٦) أن لثمود عذاباً في الآخرة؛ لأن الأمتين تماثلتا في الكفر، فلم يذكر ذلك هنا اكتفاء بذكره فيما تقدم.

فليرتقوا في الأسباب!!

تحدى الله عز وجل صناديد قريش.. وأقام عليهم الحجة.. وأعجزهم في أمور كثيرة.. ولكنه (الكِبر) والعناد.. وإلا فهم يعلمون أن الرسول ﷺ صادق أمين.. لا يصدق مع الناس ويكذب على الله عز وجل.. لم يجدوا رداً على الآيات البينات التي قرأها عليهم... فاتهموه بالكذب.. والسحر.. والشعر.. والجنون.. والكهانة وكلها تهم يعلمون هم أنها باطلة!!!

والباطل لا يقوم مع الحق.. وكان من جملة اعتراضهم على الرسول ﷺ «لماذا هو بالذات»؟.. لماذا اختاره الله.. فأتى الرد من عند الله في سورة (ص)..

كنت وصاحبي نتمشى في الصحراء التي أنبتت بعد زخات مطر استمرت أسبوعين في الفترة بين عامي ٢٠٢١ - ٢٠٢٢م.. أوقدنا ناراً.. وذهبنا لحين تجمرها..

- دعني أقرأ لك من تفسير سورة (ص)..

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ (ص).

قيل إنهم أبو جهل بن هشام، وشيبة وعتبة أبناء ربيعة بن عبد شمس، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو معيط، وجاؤوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدنا وأنصفنا في أنفسنا، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه،

فقد تركوا آلهتنا وطعنوا في ديننا، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال له: إن قومك يدعونك إلى السواء والنصفة، فقال النبي ﷺ: «**إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة**»، قال أبو جهل وعشراً (أي نجيبك إلى عشر كلمات لا واحدة). قال ﷺ «تقولون لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ الآيات.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ (ص)، كلمة تحذير، أي إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد، فاحذروا أن تطيعوه.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ قيل: أم لهم هذا فيمنعوا محمداً ﷺ مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة.

فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء، لأن خزائن السموات والأرض له.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي فإن ادَّعوا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ أي فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد.

قال الربيع بن أنس: الأسباب أرقُّ من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا تُرى. والسبب في اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره.

وقيل: (الأسباب) أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها، قاله مجاهد وقتادة.

وهذا أمر توبيخ وتعجيز فانقطعت حجتهم، لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا.

والكلام مرتبط بما قبل، أي ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تغمَّك عزتهم وشقاقهم، فإني أهزم جمعهم وأسلب عزهم. وهذا تأنيس للنبي ﷺ، وقد فعل بهم هذا يوم بدر.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾.

(أم) منقطعة فهي مشعرة باستفهام بعدها هو للإنكار والتوبيخ إنكاراً لقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ (ص)، أي ليست خزائن فضل الله تعالى عندهم فيتصدوا لحرمان من يشاءون حرمانه من مواهب الخير، فإن المواهب من الله يصيب بها من يشاء فهو يختار للنبوة من يصطفيه وليس الاختيار لهم فيجعلوا من لم يقدموه عليهم في دينهم غير أهل لأن يختاره الله.

والخزائن: جمع خزانة بكسر الخاء. وهي البيت الذي يخزَّن فيه المال أو الطعام، ويطلق أيضاً على صندوق من خشب أو حديد يخزَّن فيه المال.

والخَـزْن: الحفظ والحـرز. والرحمة: ما به رفق بالغير وإحسان إليه، شُبّهت (رحمة الله) بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إليه النفوس في أنه لا يُعطَى إلا بمشيئة خازنه.

والعدول عن اسم الجلالة (الله) إلى وصف (ربك) لأن له مزيدَ مناسبة للغرض الذي الكلام فيه إيماء إلى أن تشريفه إياه بالنبوءة من آثار صفة

ربوبيته له لأن وصف الرب مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال. وأجري على الرب صفة (العزيز) لإبطال تدخلهم في تصرفاته، وصفة (الوهاب) لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعاً لرغباتهم دون موادَّة الله تعالى.

والعزيز: الذي لا يغلبه شيء، والوهاب: الكثير المواهب فإن النبوءة رحمة عظيمة فلا يخوَّل إعطاؤها إلا لشديد العزة وافر الهبات.

وفي هذا ردٌّ على جميع مزاعمهم ويشمل بإجماله جميع النقوض التفصيلية لمزاعمهم بكلمة جامعة.

والاستفهام المقدَّر بعد (أم) المنقطعة تهكُّمي وليس إنكارياً؛ لأن تفريع أمر التعجيز عليه يعيِّن أنه تهكُّمي. فالمعنى: إن كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فكان لهم شيء من ذلك فليصعدوا إن استطاعوا في أسباب السموات ليخبروا حقائق الأشياء فيتكلموا عن علم في كنه الإله وصفاته وفي إمكان البعث وعدمه وفي صدق الرسول ﷺ أو ضده وليفتحوا خزائن الرحمة فيفيضوا منها على من يعجبهم ويحرموا من لا يرمقونه بعين استحسان.

والأمر في (فليرتقوا) للتعجيز مثل قوله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الحج: ١٥). والتعريف في (الأسباب)؛ لأن المعروف أن لكل محل مرتفع أسباباً يصعد بها.

فتمنوا الموت إن كنتم صادقين!!

- بعث الله -عز وجل- رسوله ﷺ للناس كافة، الكفار واليهود والمجوس والنصارى، وآتاه من الآيات ما يقيم عليهم الحجة جميعاً، ولكل فئة من هذه الفئات آيات خاصةبهم مع الآيات والحجج العامة، فلا حجة لأحد بعد بعثة النبي ﷺ، ألاّ يؤمن به ويتبعه. كنا أربعة نفر نقلب كتاباً اختص بتفسير الآيات التي نزلت في اليهود بين العشائين، في مكتبة المسجد.

- والله ما يملك يهودي ولا نصراني -صادق في معرفة الحق واتباعه- إلا أن يؤمن بمحمد ﷺ، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**» مسلم. وعيد شديد لكل يهودي ونصراني، نسأل الله العافية. وانظر إلى الآيات التي أقام الله بها الحجة على اليهود خاصة، وذلك أنهم زعموا، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، يقول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (البقرة).

قل لهم يا محمد: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة. ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ في أقوالكم؛ لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة

كان الموت أحب إليه من الحياة الدنيا، لما يصير إليه من نعيم الجنة، ويزول عنه من أذى الدنيا، فأحجموا عن تمني ذلك فَرَقاً من الله لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكفرهم في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨)، وحرصهم على الدنيا؛ ولهذا قال -تعالى- مخبراً عنهم بقوله الحق: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾، تحقيقاً لكذبهم.

وأيضاً لو تمنوا الموت لماتوا، كما في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتيَنُّه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً. (صححه شاكر).

والمراد بالتمني هنا: هو التلفظ بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة، ومواطن الخصومة، ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجرؤ على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة في غير ما موطن قد حكاه عنهم التنزيل، فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمنى نزل بهم الموت.

وهذا التحدي إبطال لدعوى قارةٍ في نفوسهم اقتضاها قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة:٩١)، الذي أرادوا به الاعتذار عن إعراضهم عن دعوة محمد ﷺ بعذر أنهم متصلبون في التمسك بالتوراة لا يعدونها،

وأنهم بذلك استحقوا محبة الله إياهم، وتكون الآخرة لهم، فلما أبطلت دعوى إيمانهم بما أنزل عليهم بإلزامهم الكذب في دعواهم بسند ما أتاه سلفهم وهم جدودهم من الفظائع مع أنبيائهم، والخروج عن أوامر التوراة بالإشراك بالله -تعالى- بعبادة العجل، عقب ذلك بإبطال ما في عقائدهم من أنهم أهل الانفراد برحمة الله ما داموا متمسكين بالتوراة، وأن من خالفهم لا يكون له حظ في الآخرة، وسلك في إبطال اعتقادهم هذا طريقة الإحالة على ما عقدوا عليه اعتقادهم من الثقة بحسن المصير أو على شكهم في ذلك، فإذا ثبت لديهم شكهم في ذلك علموا أن إيمانهم بالتوراة غير ثابت على حقه وذلك أشد ما يفت في أعضادهم، ويسقط في أيديهم؛ لأن ترقب الحظ الأخروي أهم ما يتعلق به المعتقد المتدين؛ فإن تلك هي الحياة الدائمة والنعيم المقيم.

وقد قيل: إن هذه الآية رد لدعوى أخرى صدرت من اليهود تدل على أنهم يجعلون الجنة خاصة بهم مثل قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ (المائدة:١٨)، وقولهم ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ (البقرة:١١١)، وأيا ما كان فهذه الآية تحدت اليهود وأبكمتهم وأقامت عليهم الحجة.

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ جواب الشرط ووجه الملازمة بين الشرط -وهو أن الدار الآخرة لهم- والوسيلة للوصول إليه- هو تمني الموت، فإذا كان الموت هو سبب مصيرهم إلى الخيرات كان الشأن أن يتمنوا حلوله كما كان شأن أصحاب النبي ﷺ كما قال عمير بن الحمام - رضي الله عنه :

جـريا إلـى اللــه بغير زاد إلا الـتـقـى وعـمـل المـعـاد

وارتجز جعفر بن أبي طالب يوم غزوة مؤتة حين اقتحم على المشركين بقوله:

يـا حـبـذا الجنـة واقـتـرابـهـا طيبــة وبـــارد شـرابـهــــا

وجملة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ معترضة بين جملة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ وبين جملة ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ (البقرة:٩٧)، والكلام موجه إلى النبي ﷺ والمؤمنين إعلاماً لهم ليزدادوا يقيناً، وليحصل منه تحدّ لليهود، إذ يسمعونه ويودون أن يخالفوه لئلّا ينهض حجة على صدق المخبر به فيلزمهم أن الدار الآخرة ليست لهم. والمراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ما أتوه من المعاصي، سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام، فقيل عبّر باليد هنا عن الذات مجازاً كما في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥)؛ لأن اليد أهم آلات العمل. وقد عُدت هذه الآية في دلائل نبوة النبي ﷺ؛ لأنها نفت صدور تمني الموت مع حرصهم على أن يظهروا تكذيب هذه الآية.

وهي أيضا من أعظم الدلائل عند أولئك اليهود على صدق الرسول ﷺ فإنهم قد أيقن كل واحد منهم أنه لا يتمنى الموت، وأيقن أن بقية قومه لا يتمنونه؛ لأنه لو تمناه أحد لأعلن بذلك لعلمهم بحرص كل واحد منهم على إبطال حكم هذه الآية، ويفيد بذلك إعجازاً عاماً على تعاقب الأجيال كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأن القرآن معجز،

وأنه من عند الله، على أن الظاهر أن الآية تشمل اليهود الذين يأتون بعد يهود عصر النزول؛ إذ لا يُعرف أن يهودياً تمنى الموت إلى اليوم فهذا ارتقاء في دلائل النبوة.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ في موضوع الحال من ضمير الرفع في يتمنوه، أي: علم الله ما في نفوسهم، فأخبر رسوله بأن يتحداهم، وهذا زيادة في تسجيل امتناعهم من تمني الموت.

نحن قدَّرنا بينكم الموت

- لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، على قوم صنْعتهم الفصاحة والبلاغة، وتحداهم بما تميزوا به وأتقنوه، بل وبلغوا فيه الغاية البشرية، فأعجزهم! وما استطاعوا أن يأتوا بسورة من ثلاث آيات مثله، منذ نزل القرآن الكريم وإلى اليوم، بل وحتى قيام الساعة، كلما استمعتَ إلى إعجازه اللغوي لا تملك إلا أن تقول: (سبحان الله!)، بل وتستمتع أذن كل من يتذوق اللغة العربية، بترتيب كلماته وأحرفه بل وحركات الأحرف.

صاحبي من كتاب الروايات، تحولت بعضها إلى عروض تلفزيونية، يكتب بالفصحى، وله بعض القصائد، ولكنه يرفض لقب (شاعر)، ويعترف دائماً أن التفسير اللغوي للقرآن هو ما يقوي لغته ويميز كتاباته.

- مثلاً قول الله تعالى: في سورة الواقعة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (الواقعة).

في هذه الآيات إقامة حجة، وبيان وتحدٍّ، وتهديد. استمع إلى تفسيرها مع بيان معاني الكلمات: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي فهلا تصدقون بالبعث؟، لأن الإعادة كالابتداء، بل أهون، وسوف يتضح لكم ذلك فيما يلي من الحقائق: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي ما تصبونه من المني في أرحام النساء، ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي تصورون منه الإنسان ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ

﴿٥٩﴾ المقدرون المصورون؟ وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى، أي إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث.

ومعنى ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، ومفعولها الأولى ﴿مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، والثاني: الجملة الاستفهامية، وهي: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: تقدرونه وتصورونه بشراً أم نحن المقدرون المصورون له؟

قرأ الجمهور: «تمنون» بضم الفوقية من أمنى يمنى، وقرأ ابن عباس بفتحها من منى يمني، وهما لغتان، وقيل: معناهما مختلف، يقال: أمنى إذا أنزل عن جماع، ومنى إذا أنزل عن احتلام، وسمي المني منياً لأنه يُمنى، أي: يراق، أي خلقناكم الخلق الذي لم تروه، ولكنكم توقنون بأنا خلقناكم، فتدبروا في خلق النسل، لتعلموا أن إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق، والاستفهام للتقرير بتعيين خالق الجنين من النطفة، إذ لا يسعهم إلا أن يقروا بأن الله خالق النسل من النطفة، وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق. وإنما ابتدئ الاستدلال بتقديم جملة ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ زيادة في إبطال شبهتهم، إذ قاسوا الأحوال المغيبة على المشاهدة في قلوبهم، لا نعاد بعد أن كنا تراباً وعظاماً، وكان حقهم أن يقيسوا على تخلق الجنين من مبدأ ماء النطفة فيقولوا: لا تتخلق من النطفة الميتة أجسام حية، كما قالوا: لا تصير العظام البالية ذواتاً حية، وإلا فإنهم لم يدّعوا قط أنهم خالقون، فكان قوله ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تمهيداً للاستدلال على أن الله هو خالق الأجنة بقدرته، وأن تلك القدرة لا تقصر عن الخلق الثاني عند البعث. وقد حصل من نفي الخلق عنهم وإثباته لله - تعالى - معنى قصر الخلق على الله - تعالى - والمعنى: أتظنون أنفسكم خالقين النسمة مما تمنون؟

استدلال بإماتة الأحياء على أنها مقدورة لله - تعالى - ضرورة أنهم موقنون بها ومشاهدونها ووادون دفعها أو تأخيرها، فإن الذي قدر على خلق الموت بعد الحياة قادر على الإحياء بعد الموت. فلا جرم أن القادر على خلق حي مما ليس فيه حياة وعلى إماتته بعد الحياة قدير على التصرف في حالتي إحيائه وإماتته، وما الإحياء بعد الإماتة إلا حالة من تينك الحقيقتين، فوضح دليل إمكان البعث، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ (الحج).

فهذا وجه التعبير ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ دون: نحن نميتكم، أي أن الموت مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادة (قدرنا) من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة لتتوجه أنظار العقول إلى ما في طي ذلك من دقائق وهي كثيرة، ولا سيما في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة إن أخذ لها أسبابها. وفي كلمة (بينكم) معنى آخر، وهو أن الموت يأتي على آحادهم تداولاً وتناوباً، فلا يفلت واحد منهم، ولا يتعين لحلوله صنف ولا عمر فأذن ظرف (بين) بأن الموت كالشيء الموضوع للتوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه، فالناس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم، لا يدري أحد متى ينادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قطه ولكنه يوقن بأنه نائله لا محالة.

ويفيد قوله ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ عبرة بحال الموت بعد الحياة، فإن في تقلب ذينك الحالين عبرة وتدبراً في عظيم قدرة الله وتصرفه ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ نبدل بكم أمثالكم، أي نجعل أمثالكم بدلاً، ويجوز أن يفيد معنى التهديد بالاستئصال، أي لو شئنا استئصالكم لما

أعجز تمونا فيكون إدماجاً للتهديد في أثناء الاستدلال، ويكون من باب قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ (إبراهيم).

فالعلم المنفي في قوله: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ (الواقعة)، هو العلم التفصيلي، والعلم المثبت في قوله: ولقد علمتم النشأة الأولى هو العلم الإجمالي، والإجمالي كاف في الدلالة على التفصيلي، إذ لا أثر للتفصيل في الاعتقاد.

قل الله يحييكم ثم يميتكم

– من فضل الله على الناس أنه أعلَمهم بما يحتاجون معرفته من أمور الغيب، فليس على من يريد الحق إلا أن يثبت أن محمداً ﷺ رسول من عند الله، وأن القرآن الكريم منزل من عند الله، وقد ثبت هذا في حياة النبي ﷺ بالمعجزات التي لا مجال لإنكارها، مع أن كفار قريش كانوا أحرص الناس على إثبات بطلان بعثة النبي ﷺ وعلى أن القرآن ليس من عند الله، وكانوا أكثر الناس أهلية لهذا التحدي، ولكنهم عجزوا مع ما أُوتوه من مقومات التحدي وأسباب التصدي، فثبت لديهم، ومن باب أولى لدى غيرهم، أن الرسول ﷺ حق، وأن القرآن حق، فلا حاجة للرجوع مرة أخرى إلى نقطة البداية.

– كلام منطقي سليم، لمن أراد معرفة الحق واتباعه.

كنت وصاحبي نمشي في الأحياء المجاورة لسكننا بعد صلاة العشاء، نتريض قبل الرجوع إلى بيوتنا.

– لذلك يقيم الله الحجة على من أنكر البعث، ومن شك فيه، بآيات بينات، لا يملك العاقل المنصف إلا أن يقبلها ويؤمن بها، ومن ذلك قول الله –تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الجاثية).

قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا قرأت على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في البعث لم يكن لهم دفع ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني بعد كونكم نطفاً أمواتاً ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أن الله يعيدهم كما بدأهم. فإن قلت لِمَ سمَّى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة، كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت: كيف وقع قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواب: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾؟

لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت، ألزموا ما هم مقرون به من أن الله -عز وجل- هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

وفي تفسير الطاهر بن عاشور:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (الجاثية).

عطْف على ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الجاثية)، أي

عقدوا على عقيدة ألّا حياة بعد الممات استناداً للأوهام والأقيسة الخيالية. وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه لم يعارضوها بما يبطلها بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون: إن كان البعث حقاً فأتوا بآبائنا إن صدقتم. فالمراد بالآيات آيات القرآن المتعلقة بالبعث بدليل ما قبل الكلام وما بعده.

وفي قوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجة البينة، والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث.

والخطاب بفعل (ائتوا) موجه للمؤمنين بدخول الرسول ﷺ. و(إلا) أن قالوا استثناء من حجتهم وهو يقتضي تسمية كلامهم هذا حجة وهو ليس بحجة؛ إذ هو بالبهتان أشبه، فإما أن يكون إطلاق اسم الحجة عليه على سبيل التهكم بهم، وعلى هذا يكون الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وإما أن يكون إطلاق اسم الحجة على كلامهم جرى على اعتقادهم. وتقديرهم دون قصد تهكم بهم، أي أَتوا بما توهموه حجة. فيكون المعنى ألا حجة لهم البتة؛ إذ لا حجة لهم إلا هذه، وهذه ليست بحجة بل هي عناد فيحصل ألا حجة لهم بطريق التلميح. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الجاثية).

تلقينٌ لإبطال قولهم ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤)، يتضمن إبطال قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ (الجاثية:٢٤). وإنما (يحييكم) توطئة له، أي كما هو أوجدكم هو يميتكم لا الدهر، تقديم اسم (الله) يفيد

تخصيص الإحياء والإماتة به لإبطال قولهم، إن الدهر هو الذي يميتهم. وقوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إبطالٌ لقولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ (الجاثية:٢٤)، وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حالٌ من يوم القيامة، أي لا ريب في وجوده بما يقتضيه من إحياء الأموات، ومعنى نفي الريب فيه أنه حقيقة... وقوع يوم القيامة بالنسبة لقدرة الله ليس أعجب من بدء الخلق، وأن الله أخبر عن وقوعه فوجب القطع بوقوعه. فكان الشك فيه جديراً بالاقتلاع فكأنه معدوم.

قل يحييها الذي أنشأها أول مرة!!

سألته.. كيف وضعك مع الصلاة؟

أجابني.. أصلي الفروض جميعها في البيت، من باب الاحتياط.

ماذا تعني « من باب الاحتياط»؟! سألته مستنكراً مستغرباً.

– عندما وزنت الأمور في ذهني، قلت الصلاة لا تأخذ مني جهداً ولا وقتاً طويلاً، فإذا كان هناك حساب أكون قد أخذت احتياطي، فلن أحاسب على تركها.

– ستحاسب على ما هو أكبر منها، ولن تنفعك صلاتك مع هذه العقيدة، عقيدة الشك في الآخرة، والحساب والجزاء.

صاحبي، زميل في العمل، في كلية أخرى، ولكنه جاري في السكن، ولديه آراء منذ شبابه، يتساءل عن كل شيء، ويشكك في كل شيء، ويجرب كل شيء، ولم يتغير منذ عشرين سنة حين جاورته وتعرفنا على بعض.

– الحكيم يا أبا زياد، يعتبر من غيره، ويعرف الأمور قبل أن تقع، وقضية الشك في البعث والحساب والجزاء ليست وليدة اليوم، بل تبنّاها كل من عارض رسل الله، وذكر الله ذلك في كتابه، وردّ على المشككين تساؤلاتهم، وفنّد آراءهم، في آيات كثيرة، لماذا لا تتبع هذه الآيات وتتدبر معانيها؟

– ببساطة لا أقرأ القرآن كثيراً، وإذا قرأت شيئا أشعر أنني لا أجيد

القراءة، فأتركه، وإذا فتحت كتب التفسير تمر علي كلمات وأحياناً مصطلحات لا أفهمها، أشعر أنها لم تكتب لزماننا هذا، فقررت ألّا أفتح هذه الكتب.

شعرت بالأسى لما سمعت من جاري.

– دعني أقرأ لك تفسير بعض الآيات، وإذا لم تفهم شيئاً منها إستوقفني، وسوف أبيّن لك المعنى بكلمات سهلة، ونحن الآن في شهر الصيام، ولدينا الكثير من الوقت للقراءة والراحة، لم يجبني إلى طلبي فوراً، بعد تفكير اقترح علي:

– لم لا تكتب لي آيات، وتفسيرها وسوف أقرؤها في المنزل، وأسألك فيما بعد إن وجدت صعوبة في فهم شيء؟

– أفعل إن شاء الله.

إحترت أي آيات أكتب؟ وأي كتاب تفسير أستعين به، ففتحت المصحف، فإذا أنا بآيات من سورة (يس)، كتبتها وتتبعت تفسيرها وبعثتها لصاحبي.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (يس).

في التفسير: جاء أحد هؤلاء الثلاثة (أبي بن خلف، وقيل العاصي بن وائل، وقيل أبو جهل) إلى رسول الله ﷺ في يده عظم إنسان رميم، ففته

وذراه في الريح وقال: يا محمد، أتزعم أن الله يحيي هذا بعد ما أرم (أي بلي)؟ فقال له النبي ﷺ: نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم.

فالتعريف في الإنسان تعريف العهد وهو الإنسان المعين المعروف بهذه المقالة يومئذ، ونظير هذه الآيات قوله -تعالى-: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ في سورة القيامة.

والمراد بـ(خصيم): أنه شديد الشكيمة بعد أن كان أصله نطفة.

و(إذا) هنا: الفجائية، ووجه المفاجأة أن ذلك الإنسان خُلق ليعبد الله، ويعلم ما يليق، به فإذا لم يجر على ذلك فكأنه فاجأ بما لم يكن مترقَّباً منه مع إفادة أن الخصومة في شؤون الإلهية كانت بما بادر به حين عقل.

و(الخصيم): أي مخاصم شديد الخصام.

والمبين: من أبان بمعنى بان، أي ظاهر في ذلك.

وضرب المثل: إيجاده، والمثل: تمثيل الحالة، فهو كقوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (النحل)، أي لا تشبهوه بخلقه فتجعلوا له شركاء.

وقوله -تعالى-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ﴾ أي ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة فركبنا فيه الحياة، أي جوابه من نفسه حاضر، وهي (رميم) أي بالية.

كأنه قيل: ما هذا المثل الذي ضربه؟ فقيل: قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ ﴾

وهي رميم؟ وهذا الاستفهام للإنكار؛ لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية؛ حيث لم يكن في مقدور البشر.

والاستفهام في قوله: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾؟ إنكاري، فالمعنى: لا أحد يحيي العظام وهي رميم، والنسيان في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ أي نسي أننا خلقناه من نطفة، أي لم يهتد إلى أن ذلك أعجب من إعادة عظمه، كقوله -تعالى-: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾ (ق).

وذكْر النطفة هنا تمهيداً للمفاجأة بكونه خصيماً مبيناً عقب خلقه، أي ذلك الهيّن المنشأ قد أصبح خصيماً عنيداً، وليبنى عليه قوله بعد: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ أي نسي خلقه الضعيف فتطاول وجاوز، ولأنّ خلقه من النطفة أعجب من إحيائه وهو عظم مجاراة لزعمه في مقدار الإمكان، وإن كان الله يحيي ما هو أضعف من العظم فيحيي الإنسان من رماده ومن ترابه، ومن عجب ذنبه، ومن لا شيء باقياً منه.

أي يحييها لأنه أنشأها أول مرة، فهو قادر على إنشائها مرة ثانية كما أنشأها أول مرة، قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ (الواقعة)، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ (الروم:٢٧).

وذيّل هذا الاستدلال بجملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ أي واسع العلم محيط بكل وسائل الخلق التي لا نعلمها: كالخلق من نطفة، والخلق من ذرة، والخلق من أجزاء النبات المغلقة كسوس الفول وسوس الخشب، فتلك أعجب من تكوين الإنسان من عظامه.

فلولا إذا بلغت الحلقوم!

(الموت حق)، عبارة آمن بها الخلق جميعاً؛ ذلك أنهم رأوها، وتحدثُ أمام أعينهم مرة بعد مرة؛ فلا يملكون تجاهها سوى الاستسلام، ولن يمكنهم دفعها، ولا حتى تأجيلها، وإن زعم بعضهم أنه زاد في عمر أحدهم بضعة أشهر بعلاج مرضه!

– هناك حديث ذكر فيه النبي ﷺ هذه الحقيقة.

– نعم.

عن طاوس، سمع ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مَلِكُ السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت – أو: لا إله غيرك – قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: ولا حول ولا قوة إلا بالله» (متفق عليه).

كنت وصاحبي في طريقنا لزيارة والدته، التي اقترب عمرها من التسعين؛ فاضطروا لإدخالها المستشفى لتعثرها بعتبة غرفتها، فتورمت قدمها.

- لقد تحدى الله الخلق جميعاً أن يدرؤوا عن أنفسهم الموت، بل وأخبرهم أنهم سيموتون، ثم يبعثون، ثم يجازون على أعمالهم، وآيات الكتاب بيّنة في هذه القضية، اسمع قوله -تعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الواقعة).

كأنهم قالوا: إنا نقدر على ألا نموت؛ فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾، ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي غير مجزيين ترجعون تلك النفوس وأنتم ترون كيف تخرج عند ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بأنكم تمتنعون من الموت. وقوله -سبحانه-: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ (آل عمران). وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (الجمعة). أي إن فررتم من الموت فلن تنجوا منه، وهو ملاقيكم لا محالة، وملاقيكم بمعنى مدرككم، كما في قوله -تعالى-: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ (النساء:٧٨).

جاء معناه موضحاً في آيات أخرى، كقوله -تعالى- في سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ (آل عمران:١٨٥)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ (الرحمن)، وقوله -تعالى-: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ (القصص:٨٨).

قوله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنبياء).

- ليتك تقرأ لنا شيئاً من تفسير هذه الآيات.

- لك ذلك.

استخرجت لصاحبي ملخص بعض كتب التفسير.

يقول - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ: وما خلّدنا أحداً من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلّدك فيها، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك من رسلنا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكل حال عشت أو متّ.

والخطاب للنبي ﷺ وهو خبر مستعمل في التعريض بالمشركين؛ إذ كانوا يقولون: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ (الطور)، والمعنى: أن الموت يأتيك ويأتيهم فما يدري القائلون: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أن يكونوا يموتون قبلك، وكذلك كان، فقد رأى رسول الله ﷺ مصارعَ أشد أعدائه في قليب بدر، قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: دعا رسول الله ﷺ على أبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد، فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّهم رسول الله ﷺ صرعى في القليب (قليب بدر) (البخاري).

ومشى أُبيّ بن خلف بعظم بال قد أرم فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم، ثم فتّه بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ، فقال: «نعم أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار»، وأنزل الله -تعالى-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (يس).

فبُهت الذي كفر!

بسبب فيروس كورونا الذي بدأ بالإنتشار في العالم مع نهاية عام ٢٠١٩ للميلاد، اضطر المسلمون للتوقف عن الذهاب للجمعة والجماعات في الكويت، واستمر إغلاق المساجد ثلاثة أشهر، واقتصر الأمر على رفع الأذان لكل صلاة، وهو مشهد لم يكن يخطر على بال أحد مطلقاً، حتى الحرم المكي الذي لم يخل يوماً من طائف أو قائم أو راكع، أصبح خالياً، مما أدمى القلوب، وأدمع العيون، ولكنها إرادة الله التي لابد من نفاذها.

- ربما كانت تجربة لها محاسنها، وذلك أن الناس اتخذوا بيوتهم مساجد، فأصبحوا يؤدون الصلوات الخمس جماعة في وقتها، رجالاً ونساء وأطفالاً، فكانت تجربة جميلة ولا سيما صلاة التراويح وقيام الليل في المنزل؛ ليتعرف الأطفال هذه الصلوات ويشاركوا فيها.

- نعم، ربما كانت هذه الإيجابية الوحيدة في هذا الأمر، مع المحافظة بالطبع على الصحة العامة، ومنعاً لانتشار الوباء.

- الحمد لله نحن الآن في بداية عام ميلادي جديد، وبدأت الأمور ترجع إلى طبيعتها، عدا الذهاب إلى المدارس والجامعات والسفر خارج البلاد.

كنا في طريقنا لأخذ حقنة لقاح كورونا؛ وذلك لأننا تعدينا الـ(٦٥) عاماً، فأعطونا الأولوية مع الأطباء وأصحاب المهن الطبية.

-المؤمن يفسر الأمور كلها وفق منظور شرعي، قَدرُ الله، إرادة الله،

ارتكاب المعاصي، طاعة الله، دعاء الله، اختبار من الله، رحمة الله، عذاب الله، مع وجود الأسباب الدنيوية. أما الغافل والجاحد والمتكبر، فلا يرى في تقلبات الحياة سوى الجانب المادي، كثيرٌ من الماديين ينهار، أو يكابر، وقليل منهم يرجع إلى الله، إذا صدق مع نفسه وصفى قلبه وأصلح نيته.

وصلنا إلى موقع أخذ اللقاح، أرشدنا رجال الداخلية إلى مواقف المركبات، والصالة المجهزة لهذا الأمر.

- لقد تحدى الله المكابرين والماديين بأمور ظاهرة لا يمكنهم إنكارها، وأقام عليهم الحجة بعد أن بيّن بطلان منطقهم، من ذلك ما دار بين إبراهيم ونمرود الذي زعم أنه إله.

اسمع قول الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة).

جرى هذا الكلام حجة أو مثالاً: لـمَّا ذكر أن الله يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، وأن الطاغوت يخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات، ساق ثلاثة شواهد على ذلك، هذا أولها وأجمعها لأنه اشتمل على ضلال الكافر وهدى المؤمن.

والمقصود من هذا تمثيل حال المشركين في مجادلتهم النبي ﷺ في البعث بحال هذا الذي حاجّ إبراهيم -عليه السلام- وفي قصص هذه المحاجة روايتان: إحداهما أنهم خرجوا إلى عيد لهم فدخل إبراهيم على

أصنامهم فكسرها، فلما رجعوا قال لهم: أتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا: فمن تعبد؟ قال: أعبد ربي الذي يحيي ويميت. وقال بعضهم: إن نمرود كان يحتكر الطعام، فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل إبراهيم فلم يسجد له، فقال: مالك لا تسجد لي؟! قال: أنا لا أسجد إلا لربي. فقال له نمرود: من ربك؟ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت.

ثم أمر نمرود بإبراهيم فألقي في النار، وهكذا عادة الجبابرة فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة، فأنجاه الله من النار، وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ تعليل لما يتضمنه (حاجّ) من الإقدام على هذا الغلط العظيم الذي سهله عنده ازدهاؤه وإعجابه بنفسه.

قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذه ألف التوقيف، وفي الكلام معنى التعجب، أي اعجبوا له، وقال الفراء: «ألم تر» بمعنى هل رأيت، أي هل رأيت الذي حاج إبراهيم، وهو النمرود ابن كوش ابن كنعان ابن سام ابن نوح (ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة)، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، وكان إهلاكه لـمَّا قصد المحاربة مع الله -تعالى- بأن فتح الله -تعالى- عليه باباً من البعوض فستروا عين الشمس، وأكلوا عسكره، ولم يتركوا إلا العظام، ودخلت واحدة منهم في دماغه فأكلته، حتى صار مثل الفأرة، فكان أعز الناس عنده من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة لذلك، فبقي في البلاء أربعين يوماً. قال السدي: إنه لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك -ولم يكن قبل ذلك دخل عليه- فكلمه وقال له: من ربك؟ فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، قال النمرود: أنا أحيي وأميت، وأنا

آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتاً ولا يطعمون شيئا ولا يسقون حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحييا وتركت اثنين فماتا، فعارضه إبراهيم -عليه السلام- بالشمس فبهت.

قصد إبراهيم -عليه السلام- إلى الحقيقة، وفزع نمرود إلى المجاز وموّه على قومه، فسلم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا آتي بها من المشرق، لأن ذوي الألباب يكذبونه.

وهذه الآية تدل على جواز تسمية الكافر ملكاً إذا آتاه الله الملك والعز والرفعة في الدنيا، وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة.

﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله.

وبهت الرجل، إذا انقطع وسكت متحيراً؛ لأن الحجة قامت عليه، ولكن هل آمن وتقبل الحق؟ كلا... أمّا سحرة فرعون، عندما قامت عليهم الحجة وانقطع تدبيرهم، آمنوا على الفور وسجدوا لله -عز وجل-، وهكذا الحال في كل زمان ومكان، من كان مكابراً معانداً لا يتبع الحق وإن رآه رأي العين، ومن كان صادقاً مع نفسه مخلصاً في البحث عن الحق، يوفقه الله لاتباعه.

لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين!

- بهذه الكلمات الحق، أخزى الله -تعالى- إبليس، وأبدل تكبره صغاراً، فما كان من عدو الله -بعد أن أيقن أن مصيره نار جهنم- إلا أن أقسم بعزة الله، أن يغوي بني آدم حقداً وحسداً واستشفاء لما حصل بينه وبين أبيهم، ونسي عدوّ الله أن آدم لا شأن له بما حصل، وأن قياسه الباطل، وتكبره وترفعه عن اتباع أمر الله -تعالى- هو الذي ساقه إلى جهنم.

- قصة إبليس فيها الكثير من العبر، والموعظة، كان من الجن، وعاش في الجنة، وكان مع الملائكة، ورأى ما رأى من آيات الله والملكوت الأعلى، ثم خالف أمر الله الصريح بالسجود لآدم، فاستحق اللعنة، والطرد من الجنة، والوعيد بالنار، وطلب إطالة بقائه إلى يوم القيامة، فأعطي ذلك، فأقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم جميعاً، فلم يعط ذلك، ولكن أعطي أسباب الإغواء، ابتلاءً لبني آدم، مع علمه أن عباد الله الصادقين لا سبيل له عليهم، وهكذا أمرْه إلى أن يرث الله -تعالى- الأرض ومن عليها.

- لنقرأ بعض آيات الكتاب وتفسيرها في هذا الأمر:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ

﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ (الحجر). ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (ص). قوله -تعالى-: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة، ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾ (مذؤوماً) أي مذموماً، والذأم: العيب، بتخفيف الميم، قال ابن زيد: مذؤوما ومذموما سواء، يقال: ذأمته وذممته بمعنى واحد، والمدحور: المبعد المطرود.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**» (الصحيحة).

وهذا الكلام يدل على أن إبليس علم أن الله خلق البشر للصلاح والنفع، وبهذا الاعتبار كان إبليس عدواً لبني آدم لأنه يطلب منهم ما لم يخلقوا لأجله وما هو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصلة وجِبليَّة بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السالمة من التغيير.

واللام في لأزينن، لام قسم محذوف مراد بها التأكيد، وهو القسم

المصرح به في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾، والتزيين: التحسين، أي جعل الشيء زيْناً، أي حسناً، أي لأزينن لهم الشر والسيئات فيرونها حسنة، وأزين لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات، وتقدم عند قوله -تعالى-: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (البقرة:٢١٢).

واعلم أن هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان بين يدي الله عز وجل، وأما الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التي قدرها الله -تعالى- في علمه لتطور أطوار إبليس المقومة لماهية الشيطنة، وللألطاف التي قدرها الله لمن يعتصم بها من عباده لمقاومة سلطان الشيطان، وليس تلك الأقوال كلها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته فإن ضعفه تجاه عزة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

وضمائر: لهم، ولأغوينهم ومنهم، لبني آدم، لأنه قد علم علماً أُلقي في وجدانه بأن آدم -عليه السلام- ستكون له ذرية، أو اكتسب ذلك من أخبار العالم العلوي أيام كان من أهله وملئه. أي هذه هي السنة التي وضعتها في الناس وفي غوايتك إياهم وهي أنك لا تغوي إلا من اتبعك من الغاوين، أو أنك تغوي من عدا عبادي المخلصين.

والمعنى أن الله وضع سنّة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً، أي مائلاً للغواية مكتسباً لها دون من كبح نفسه عن الشر، فإن العاقل إذا تعلق به وسواس الشيطان علم ما فيه من إضلال وعلم أن الهدى في خلافه فإذا توفق وحمل نفسه على اختيار الهدى وصرف إليه عزمه قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان، وإذا مال

إلى الضلال واستحسنه واختار إرضاء شهوته صار متهيئاً إلى الغواية فأغواه الشيطان فغوى.

وقد دل على هذا المعنى تعلق نفي السلطان بجميع العباد، ثم استثناء من كان غاوياً، فأصبح سلطان الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً. وضمير (موعدهم) عائد إلى من اتبعك، والموعد مكان الوعد، وأطلق هنا على المصير إلى الله استعير الموعد لمكان اللقاء تشبيهاً له بالمكان المعين بين الناس للقاء معين وهو الوعد.

أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون؟!

- مِن أشرف ما يمكن أن يتعلمه العبد ويعلمه أسماء الله الحسنى؛ لأنها تتعلق بالله -عز وجل-، وشرف العلم من شرف المعلوم، وهذا الباب العظيم من أبواب العقيدة، توحيد الأسماء والصفات، وضع له العلماء ضوابط دقيقة حتى لا ينسب إلى الله ما لا ينبغي من أسماء وصفات، وباب أسماء الله الحسنى أدق من باب الصفات العلا لله -عز وجل- لذلك اجتهد العلماء في إحصاء هذه الأسماء إيماناً بحديث النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه، وروى الترمذي وغيره هذا الحديث وسرد بعده تسعة وتسعين اسما، وقال الألباني -رحمه الله- ضعيف.

- لكن الحديث الذي فيه الأسماء الحسنى، منتشر بين الناس، ومطبوع في كل أرجاء العالم الإسلامي، ويكتبه عامة الناس على حوائط المدارس والجسور، والمباني العامة.

كنت وصاحبي في مكتبته، بعد صلاة العصر، نقلب الكتب إلكترونيا في الحاسوب.

- انتشار الحديث لا يعني صحته؛ لذلك من عمل في جمع الأسماء الحسنى لم يعتمده، وإنما قام العلماء بتمحيص ما ورد فيه، فأزالوا ما لم يثبت من الأسماء الحسنى، وأبقوا ما ثبت، وأضافوا من كتاب الله ومن سنة النبي ﷺ باقي الأسماء، حتى أحصوا تسعة وتسعين اسما، مع اختلافهم

على بعض الأسماء لاختلاف اجتهاداتهم وكلهم مصيب إما بأجر أو بأجرين من فضل الله.

– وما مناسبة هذه المقدمة ونحن بصدد قراءة تفسير هذه الآية من سورة الزخرف؟

– مناسبة ذلك أننا لا نستطيع أن نقول: إن من أسماء الله الحسنى (المبرم) استشهاداً بهذه الآية.

– بالطبع لا نقول ذلك، وأنا شخصياً أتجنب الخوض في هذا الباب من العقيدة لدقته وخطورته واقرأ ما كتبه أهل الاختصاص، وأعجبني كتاب الشيخ د. عبدالرازق الرضواني (أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة)، وكتاب (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى)، للشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–، وكتاب (قطف الجنى الداني) للشيخ عبدالمحسن العباد.

– لنرجع إلى موضوع آية اليوم وهي آية في تهديد الكفار وتحديهم، يقول الله –تعالى–: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الزخرف).

في تفسير هذه الآيات: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْۚ﴾ يقول: أم يظن هؤلاء المشركون بالله أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم، وتشاوروا بينهم وتناجوا به دون غيرهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا. وقوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ يقول –تعالى ذكره–: بل نحن

نعلم ما تناجوا به بينهم، وأخفوه عن الناس من سر كلامهم، وحفظتنا لديهم، يعني عندهم يكتبون ما نطقوا به من منطق، وتكلموا به من كلامهم. وهذه الآية نزلت في نفر ثلاثة تدارؤوا في سماع الله -تبارك وتعالى- كلام عباده.

أم أبرموا، أم أحكموا، أمراً، في المكر برسول ﷺ، فإنا مبرمون، محكمون أمراً في مجازتهم، قال مجاهد: إن كادوا شراً كدتهم مثله.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، ما يسرونه من غيرهم ويتناجون به بينهم، بل، نسمع ذلك ونعلمه، ورسلنا، أيضا من الملائكة يعني الحفظة، لديهم يكتبون.

قتادة: أم أجمعوا على التكذيب فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث.

الكلبي: أم قضوا أمراً فإنا قاضون عليهم بالعذاب. و(أم) بمعنى بل.

قوله -تعالى-: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي ما يسرونه في أنفسهم ويتناجون به بينهم، (بلى) (نسمع ونعلم)، (ورسلنا لديهم يكتبون) أي الحفظة عندهم يكتبون عليهم، وروي أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا؟ وقال الثاني: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم.

(أم) للإنتقال من حديث إلى حديث مع اتحاد الغرض.

انتقل من حديث ما أعدّ لهم من العذاب يوم القيامة إلى ما أعدّ لهم من

الخزي في الدنيا؛ فالجملة عطف على جملة ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الزخرف).

والكلام بعد (أم) استفهام حذفت منه أداة الاستفهام وهو استفهام تقريري وتهديد، أي أأبرموا أمرا؟ وضمير (أبرموا) مراد به المشركون الذين ناوؤوا النبي ﷺ، وضمير (إنّا) ضمير الجلالة. والفاء في قوله: (فإنا مبرمون) للتفريع على ما اقتضاه الاستفهام من تقدير حصول المستفهم عنه، فيؤول الكلام إلى معنى الشرط، أي إن أبرموا أمراً من الكيد فإن الله مبرم لهم أمراً من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم، ونظيره وفي معناه قوله: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الطور).

عن مقاتل نزلت هذه الآية في تدبير قريش بالمكر بالنبي ﷺ في دار الندوة حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم، أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتل النبي ﷺ حتى لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه، وقتل الله جميعهم في بدر. والإبرام حقيقته: القتل المحكم، وهو هنا مستعار لإحكام التدبير والعزم على ما دبروه. والمخالفة بين (أبرموا ومبرمون)؛ لأن إبرامهم واقع، وأما إبرام الله جزاء لهم فهو توعد بأن الله قدر نقض ما أبرموه.

والأمر: العمل العظيم الخطير، وحذف مفعول مبرمون لدلالة ما قبله عليه.

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الزخرف). (أم) والاستفهام المقدر بعدها في قوله: (أم يحسبون) هما

مثل ما تقدم في قوله: أم أبرموا أمراً (الزخرف:٧٩). وحرف (بلى) جواب للنفي من قوله: أنّا لا نسمع، أي بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم. والسمع هو: العلم بالأصوات. والمراد بالسر: ما يسرونه في أنفسهم من وسائل المكر للنبي ﷺ، وبالنجوى ما يتناجون به بينهم في ذلك بحديث خفي.

وعطف ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ليعلموا أن علم الله بما يسرون علم يترتب عليه أثر فيهم وهو مؤاخذتهم بما يسرون؛ لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء.

والكتابة يجوز أن تكون حقيقة، وأن تكون مجازا، والأولى حملها على ظاهرها مع عدم إدراكنا لأمور الغيب وكيفيتها. و(الرسل): هم الحفظة من الملائكة؛ لأنهم مرسلون لتقصي أعمال الناس ولذلك قال: ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ كقوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق).

إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً!!

من القواعد الأساسية في صفات الله -عز وجل- أنها جميعاً صفات كمال وجلال وعزة، وهي صفات تليق برب العزة والجلال، ولا تشبه صفات المخلوقين في شيء، مثلا (عِلم الله)، يليق بجلاله ولا يقارن بعلم البشر، و(سَمع الله) يليق بجلاله -سبحانه- ولا يقارن بسمع المخلوقات، وكذلك (بصَر الله)، و(قوة الله)، (حكمة الله) و(رأفة الله)، مع أن الله -عز وجل- وصف بعض مخلوقاته بهذه الصفات، مثل قوله -عز وجل-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة)، ولكن لا مقارنة بين (رأفة الله) و(رحمة الله)، ورأفة الرسول ﷺ ورحمته.

والقاعدة الشاملة المختصرة في ذلك قول الله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشوري). وهذه الصفات لله -عز وجل- مطلقة، غير مقيدة بزمان ولا مكان؛ لأنها صفات للذات الإلهية -سبحانه وتعالى. وهناك صفات لله تتعلق بالمخلوقين.

مثل (معية الله)، كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (النحل)، ومثل قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (العنكبوت)، فهذه معية تأييد وحفظ ونصر، أما قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ (المجادلة)، فهذه معية علم واطلاع، وفيها تحذير لأهل النجوى المنهي عنها.

وهناك صفات لا تكون إلا مع من يستحقها، مثل (الكيد) و(الخداع)، و(المكر)، وبيان ذلك في هذه الآيات من سورة الطارق، تعال نتدبر تفسيرها. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ (الطارق). بعد أن أقسم -سبحانه- على أن القرآن قول فصل وما هو بالهزل، مثل قولهم: هو هزل أو هذيان أو سحر، بيّن للسامع أن عملهم ذلك كيد مقصود، فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلا ما تحققوه من عدم صدقه، وهم إنما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعللات الملفقة.

والتأكيد بـ(إن) في (إنهم) لتحقيق هذا الخبر لغرابته، وعليه فقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ إنذار لهم حين يسمعونه.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ موجهاً إلى رسول الله ﷺ تسلية له على أقوالهم في القرآن الراجعة إلى تكذيب القرآن، أي إنما يدعون أنه هزل لقصد الكيد وليس لأنهم يحسبونك كاذباً على نحو قوله -تعالى-: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ (الأنعام). أي أن المشركين المكذبين (يكيدون كيداً). وجملة: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ تثبيت للرسول ﷺ ووعد بالنصر. و﴿كَيۡدٗا﴾ في الموضعين مفعول مطلق وقصد منه مع التوكيد التعظيم.

والكيد: إخفاء قصد الضر وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في حقيقته، وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة، وهو من صفات العزيز الجبار المختصة بمن يستحقها ومن باب (الجزاء من جنس العمل).

شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريده وحسّنها محسن المشاكلة. وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾. الفاء: للإمهال على مجموع الكلام السابق من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ بما فيه من تصريح وتعريض وتبيين ووعد بالنصر، أي فلا تستعجل لهم بطلب إنزال العقاب فإنه واقع بهم لا محالة.

والتمهيل: مثل مهل بمعنى أمهل، وهو الإنظار إلى وقت معيّن أو غير معيّن، فالجمع بين (مهّل) و(أَمْهِلْهُمْ) تكرير للتأكيد لقصد زيادة التسكين، وخولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف وأخرى بالهمز لتحسين التكرير.

ومهّل وأمهل: بمعنى، مثل نَزَلَ وأنزل، وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلاً، والاسم: المهلة، والاستمهال: الاستنظار، وتمهلَ في أمره أي اتأدَ.

وامهل امهلالاً: أي اعتدل وانتصب، والامهلال أيضا: سكون وفتور، ويقال: مهلاً يا فلان، أي رفقاً وسكوناً، رويداً أي قريباً، عن ابن عباس.

قتادة: قليلاً، والتقدير أمهلهم إمهالاً قليلاً، والرويد في كلام العرب: تصغير رود. والمراد بـ(الكافرين) ما عاد عليهم ضمير (إنهم يكيدون) ليس المراد الكافرين جميعهم بل أريد الكافرون المعهودون.

و(رويداً) تصغير (رود) بضم الراء بعدها واو، هو المهل وعدم العجلة وتصغيره للدلالة على التقليل، أي مهلة غير طويلة.

و(رويدك): وله أربعة أوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر، فالاسم نحو قولك: رويد عمر، أي أرود عمر، بمعنى أمهله، والصفة نحو قولك: ساروا سيراً رويداً، والحال نحو قولك: سار القوم رويداً، لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها، والمصدر نحو قولك: رويد عمرو بالإضافة، كقوله -تعالى-: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ (محمد:٤)، قال جميعه الجوهري. والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر، أي إمهالاً رويداً، ويجوز أن يكون للحال، أي أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب.

ويجوز أن يكون رويداً هنا اسم فعل للأمر، كما في قولهم: رويدك، ويكون الوقف على قوله: الكافرين و(رويداً) كلاماً مستقلاً أي تصبر ولا تستعجل نزول العذاب بهم فيكون كناية عن الوعد بأنه واقع لا محالة.

وعند الله مكرهم!

- منذ بداية العام الميلادي ٢٠٢٠ أصابت الأرض جميعاً جائحة (كورونا) ذلك الفيروس الذي لا يمكن رؤيته إلا بعد تكبيره ملايين المرات، ومن باب التوضيح قام عالم رياضيات بحساب كمية الفيروسات التي انتشرت في العالم كله، وتسببت في وفاة قرابة ثلاثة ملايين إنسان، وأصابت أكثر من ١٢٥ مليون شخص، فوجد أنها لا تملأ عبوة ماء حجمها ٣٣٠ ملي، أو ثلث لتر فقط.

- العبر كثيرة في هذه الجائحة، ولكن أكثر الناس يعدونه مرضاً عارضاً، انتقل للبشر من الخفافيش، ويجب إيجاد علاج له، لتعود الحياة إلى طبيعتها، ويستمر كل شيء، كما كان، وكثير يعدونه أمراً عارضاً سينتهي، عاجلاً أم آجلاً، ولكنهم مستاؤون بسبب منعهم من السفر والسهر والتجمعات، والقلة القليلة هي التي تؤمن بأنه أمر من عند الله، يظهر عجز الإنسان وضعفه في مواجهة واحد من أصغر مخلوقات الله.

- كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم).

- يعجب المرء من استمرار أهل الإلحاد في إلحادهم، وأهل الغفلة في غفلتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم.

كنت وصاحبي في طريقنا لأخذ الحقنة الأولى للوقاية من هذا الوباء، عندما وصلنا إلى المركز، لم يكن قد بقي على موعد أذان الظهر سوى بضع

دقائق، دخلنا بطريقة منظمة، وسلسة، أخذنا الحقن، وخرجنا مع نهاية الأذان، جزى الله خيراً القائمين على عملية إعطاء الحقن، لقد كانوا مثالاً في التنظيم وحسن التعامل والتدبير، في طريقنا إلى المسجد القريب من مركز (التطعيم).

- لا يعجب المرء من الغافلين وأصحاب الأهواء فحسب، بل عجبي من أولئك الذين يمكرون بأهل الإيمان والدعوة إلى الخير، ويتربصون للإضرار بهم وأذاهم.

- هذا نهج كل من يحارب الله ورسوله، يمكرون وينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، ويجمعون كل طاقاتهم لمحاربة دعاة الحق، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾، وسوف أقرأ لك تفسير بعض آيات المكر بعد أداء الصلاة - إن شاء الله.

تابعنا الحوار بعد الصلاة...

يقول تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾ (إبراهيم).

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾ (النمل).

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ أي بالشرك بالله وتكذيب الرسل

والمعاندة، عن ابن عباس وغيره ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ (إنْ) بمعنى (ما) في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا، الثاني: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ (يونس: ٩٤)، الثالث: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأنبياء)، أي ما كنا. الرابع: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف)، الخامس: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ (الأحقاف: ٢٦)، والحال أنهم قد مكروا في رد الحق وإثبات الباطل مكرهم العظيم، الذي استفرغوا فيه وسعهم وعند الله مكرهم، أي: وعند الله جزاء مكرهم أو وعند الله مكتوب مكرهم فهو مجازيهم.

والمكر: تبييت فعل السوء بالآخر وإضماره، وتقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (آل عمران)، وفي قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ (الأعراف: ٩٩).

قال العلماء: «إن المكر الذي وصف به ذاته في قوله تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، ليس كمكر المخلوقين، لأن مكر المخلوقين مذموم، ويعني الخداع والتضليل، وإيصال الأذى إلى من لا يستحقه، أما مكر الله فهو محمود.

لأن فيه حفظ الله لعباده المؤمنين الطيبين، وإيصال العقوبة لمن يستحقها، لذلك فهو عدل ورحمة، مضيفين أن «المكر هنا صفة مدح في محله، لأنه يدل على القوة والعظمة، والإحاطة بمن يريد الشر، لذلك فهو صفة كمال في تلك الحالة»، ويمكن ذكر بعض القواعد هنا:

يجب عدم وصف الله – سبحانه وتعالى – بالمكر إلا مقيداً، فلا يتم إطلاق الوصف عموماً، ويجب أن نعلم بأن هذه الصفة الفعلية تتعلق بمشيئة الله – سبحانه – أي إنها من صفات الفعل الاختيارية ويجب على العبد المؤمن أن يقف عند هذه الصفة، ولا يشتق منها اسماً، لأن ذلك إلحاد في أسماء الله وصفاته، فيجب علينا تجنب ذلك.

ولا بد من اقتران هذه الصفة، وغيرها من الصفات، مثل الخداع، والاستهزاء، بما يدل على أن هذه الصفات في حقه صفات كمال، وكذلك يجب الانتباه إلى مقابل هذه الصفات الفعلية بالحادث أو من يفعل ذلك لأنها تدل على قدرة الله – سبحانه – في مقابلة عدوه بمثل عمله.

وقرأ الجمهور (لتزول) بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها فتكون (إن) نافية و(لام) لتزول (لام) الجحود أي (وما كان مكرهم زائلة منه الجبال) وهو استخفاف بهم، أي ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم، وما هو الذي تزول منه الجبال، وفي هذا تعريض بأن الرسول ﷺ والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنهم كالجبال الرواسي.

والآيات من سورة النمل ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (مكرهم) ما روي أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة أيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب، أنفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً ويقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإذا كان كاذباً وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا عجلناه قبلنا، وشفينا نفوسنا، قاله مجاهد وغيره. قال ابن عباس: أرسل الله تعالى الملائكة تلك

الليلة فامتلأت بهم دار صالح فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فقتلهم الملائكة رضخاً بالحجارة فيرون الحجارة لا يرون من يرميها. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (الأنعام).

سمى الله تآمرهم مكراً لأنه كان تدبير ضر في خفاء، وأكد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر، ونوّنه للتعظيم، والمكر الذي أسند إلى اسم الجلالة هو باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله، وتأخيره استئصالهم إلى الوقت الذي تآمروا فيه على قتل صالح لشبه فعل الله ذلك بفعل وعظم كما أكد مكرهم وعظم، وذلك بما يناسب جنسه، فإن عذاب الله لا يدانيه عذاب الناس فهو أعظم من كل ما يقدره الناس، والمراد المكر المسند إلى الجلالة هو ما دلت عليه جملة، ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ (النمل).

والخطاب في قوله (فانظر) للنبي ﷺ واقترانه بفاء التفريغ إيماء إلى أن الاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من ذِكر القصة تعريضاً بأن عاقبة أمره مع قريش أن يكف عنه كيدهم وينصره عليهم وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من قومه.

قل الله أسرع مكراً!!

عرض عليّ صاحبي مقطعاً مصوراً (لمعمم) تحول من الإسلام إلى النصرانية.. وبرر هذا التحول بأنه (لا يؤمن برب يمكر ويخادع ويعذب ويضل)... وجملة افتراءات ومفاهيم خاطئة زعمها هذا المرتد...

- هذا جاهل بدين الله.. وأشك في قوله أن درس في حوزة علمية وقرأ كتب علماء الإسلام... وإن كان صادقاً فيما يقول فإن فهمه الأعوج ناتج من جهله باللغة العربية واللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن... ولسوء نيته... وخبث خبيئته!!

- بغض النظر عن افتراءات هذا المعمم الجاهل... كيف يمكن فهم هذه الآيات التي وردت في كتاب الله عز وجل... فهماً صحيحاً وفق ما جاء في تفسير العلماء المعتبرين؟!

- الثابت في صفات الله عز وجل أنها صفات كمال وعز وجمال.. صفات تليق بالله عز وجل نثبتها كما وردت في القرآن والسنة الصحيحة دون تأويل ولا تمثيل ولا تشبيه... دليلنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى)، وهذه الصفات التي ذكرها هذا المرتد إنما هي صفات لله عز وجل مع من يستحقها من الكفار المعاندين والمنافقين... جزاء على عملهم وتهديداً لهم... وإنذاراً أن يرجعوا عن بهتانهم... ولا يوصف رب العزة بهذه الصفات على الإطلاق دون قيد وبيان... ومثال ذلك قول الله عز وجل...

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس).

لما بيّن سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عناداً، ومكراً، ولجاجاً، ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله والمراد بإذاقتهم رحمته سبحانه: أنه وسع عليهم في الأرزاق، وأدرَّ عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضراء بالجدب وضيق المعايش، فما شكروا نعمته، ولا قدروها حق قدرها، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، وطعنوا في آيات الله، واختالوا في دفعها بكل حيلة، وهو معنى المكر فيها. و(إذا) الأولى: شرطية، وجوابها: إذا لهم مكر، وهي: فجائية، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ﴾ أي: أعجل عقوبة، وقد دل أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله أسرع منه. و(إذا) الفجائية: يستفاد منها السرعة، لأن المعنى أنهم فاجأوا المكر، أي: أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة، وتسمية عقوبة الله سبحانه: مكراً، من باب المشاكلة.

والمكر: حقيقته إخفاء الإضرار وإبرازه في صورة المسألة، ومعنى (مكرهم) في الآيات: إنهم يوهمون أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول ويزعمون أنه لو أُنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك وإنما هو يكذبونه عناداً ومكابرة وحفاظاً على دينهم في الشرك.

ولما كان الكلام متضمناً التعريض بإنذارهم، أمر الرسول أن يعظهم بأن

الله أسرع مكراً، أي منكم، فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله. وأُطلق على تأجيل الله عذابهم اسم (المكر) لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر، وحسنته المشاكلة.

وجملة: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ خطاب للمشركين مباشرة تهديداً من الله، وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي ﷺ وأن مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك، وهو إنذار بالعذاب، وهذا يستلزم علم الله تعالى بذلك.

وعبّر بالمضارع في (يكتبون)، و(يمكرون) للدلالة على التكرار، أي تتكرر كتابة الملائكة كلما يتكرر مكرهم.

و(المكر) لا يضاف إلى الله إلا مقابلة لمكر الكفار والمعاندين.

لأن (المكر) صفة نقص وصفات العزيز الحكيم كلها صفات كمال وعلوّ.

والمعنى: إن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير؟

وفي هذا وعيد لهم شديد، وهذه الجملة تعليلية للجملة التي قبلها، فإن مكرهم إذا كان ظاهراً لا يخفى، فعقوبة الله كائنة لا محالة.

وجاء الكلام على طريقة الحكاية عن حالهم، والملقى إليه الكلام هو النبي ﷺ والمؤمنون. وفيه تعريض بتذكير الكفار بحال حلول المصائب بهم لعلم يتذكرون، فيعدوا عدة الخوف من حلول النقمة التي أنذرهم بها في

قوله ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ (يونس: ٢٠) كما في الحديث: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» (صحيح الجامع).

والآية تشير إلى ما أصاب قريشاً من القحط سبع سنين بدعاء النبي ﷺ ثم كشف الله عنهم القحط وأنزل عليهم المطر، فلما حيوا طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدون له.

والرحمة: هنا مطلقة على أثر الرحمة، وهي النعمة والنفع، كقوله: وينشر رحمته (الشورى: ٢٨).

والضراء: الضر. والمس: مستعمل في الإصابة. والمعنى إذا نالت الناس نعمة بعد الضر، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض.

ويتبين ذلك جلياً عند تتبع الآيات التي وردت فيها هذه الصفة مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال).

فهي صفة لله عز وجل مع من يمكر في آيات الله أو يمكر برسل الله فيعاقبه الله جزاء مكره بما شاء سبحانه ومن حيث لا يدري!!!

وهكذا تفهم الآيات التي وردت فيها هذه الصفات مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ (البقرة).

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ (النساء).

الله معهم أينما كانوا!!

(معية الله)، صفة لله -عز وجل-، لو تدبرها ابن آدم وتذكرها، لم يقع في معصية. (معية الله)، معية علم واطلاع وسماع، وهذه للخلق جميعاً، يغفل عنها ابن آدم؛ فيرتكب المعصية جاهلاً أنه تحت سمع الله وبصره، يبتعد عن أنظار الخلق وأسماعهم، وينسى سمع الله وبصره إليه، وهذا خُلُق المنافقين وسمتهم، كما قال الله -تعالى-: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ (النساء). وفي قول الله -تعالى-: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، تهديدٌ لهم ووعيدٌ، كما في آيات النجوى، عند قول الله -تعالى- بعد أن ذكر عدد المتناجين: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ (المجادلة: ٧)، في كهف داخل جبل، أو حجرة تحت الأرض، أو تحت الماء أو في السماء، ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾، ولا شك أنه تذكير وتهديد ووعيد أن ينتهوا!

- وماذا عن (معية الله) الثانية لم تذكرها.

- نعم (معية الله) لمن يحب من عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (النحل)، وهي معية تأييد وحفظ ونصر، ولا تكون إلا لمن يستحقها. تعال نتدبر هاتين الآيتين من سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ

وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ (المجادلة).

في التفسير: النجوى خلوة ثلاثة يُسِرون شيئاً. والسرار ما كان بين اثنين، والمعنى: أن سمع الله محيط بكل كلام، والعدد غير مقصود؛ لأنه -تعالى- إنما قصد أنه بعلمه مع كل عدد قلّ أو كثير، يعلم ما يقولون سراً وجهراً، ولا تخفى عليه خافية، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض، وفي التفسير أن نفراً اجتمعوا وقالوا: لو كان محمدٌ نبياً لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري -تعالى- حليم لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على الأذى من الله يدّعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم**» (البخاري)، فأنزل الله -تعالى- هذا كشفاً لسرائرهم، وفضحاً لبواطنهم، معجزة لرسوله ﷺ.

و(ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتراخي؛ لأن عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها أعظم من ابتداء النجوى؛ لأن ابتداءها كان إثماً لما اشتملت عليه نجواهم من نوايا سيئة نحو النبي ﷺ والمسلمين، فأما عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها فقد زادوا به تمرداً على النبي ﷺ ومشاقة للمسلمين.

والتعريف في (النجوى) تعريف العهد؛ لأن سياق الكلام في نوع خاص من النجوى، وهي النجوى التي تُحزن الذين آمنوا كما في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ (المجادلة).

قال ابن العربي في (أحكام القرآن) عند قوله -تعالى-: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ في سورة النساء: إن الله -تعالى- أمر عباده بأمرين عظيمين: أحدهما: الإخلاص وهو أن يستوي ظاهر المرء وباطنه، والثاني: النصيحة لكتاب الله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فالنجوى خلاف هذين الأصلين وبعد هذا فلم يكن بد للخلق من أمر يختصون به في أنفسهم ويخص به بعضهم بعضا فرخص في ذلك بصفة الأمر بالمعروف والصدقة وإصلاح ذات البين. وفي (الموطأ) حديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد». زاد في رواية مسلم «**إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه**». وألحق بالتناجي أن يتكلم رجلان بلغة لا يعرفها ثالث معهما.

وصيغة المضارع في ﴿يَعُودُونَ﴾ دالة على التجدد، أي يكررون العودة، يريدون بذلك العصيان وقلة الاكتراث بالنهي؛ فإنهم لو عادوا إلى النجوى مرة أو مرتين لاحتمل حالهم أنهم نسوا. والإثم: المعصية وهو ما يشتمل عليه تناجيهم من كلام الكفر وذم المسلمين.

والعدوان بضم العين: الظلم وهو ما يدبرونه من الكيد للمسلمين.

ومعصية الرسول مخالفة ما يأمرهم به، ومن جملة ذلك أنه نهاهم عن النجوى وهم يعودون لها بعد أن ذكر حالهم في اختلاء بعضهم ببعض، ذكر حال نياتهم الخبيثة عند الحضور في مجلس النبي ﷺ؛ فإنهم يتتبعون سوء نياتهم من كلمات يتبادر منها للسامعين أنها صالحة؛ فكانوا إذا دخلوا على النبي ﷺ يخفتون لفظ «السلام عليكم»؛ لأنه شعار الإسلام، ولما فيه من جمع معنى السلامة؛ فيعدلون عن ذلك ويقولون: أنعم صباحاً، وهي

تحية العرب في الجاهلية؛ لأنهم لا يحبون أن يتركوا عوائد الجاهلية. نقله ابن عطية عن ابن عباس.

فمعنى بما لم يحيك به الله، بغير لفظ السلام، فإن الله حياه بذلك بخصوصه في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ (الأحزاب)، وحياه به في عموم الأنبياء بقوله: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ (النمل)، وتحية الله هي التحية الكاملة.

ومعنى (يقولون في أنفسهم) يقول بعضهم لبعض على نحو قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ (النور:٦١).

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!

في آيات كثيرة لا يذكر الله -عز وجل- نوع العذاب ولا شدته ولا مدته، وهذا من بلاغة اللغة العربية التي نزل بها كتاب الله.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء).

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل).

وذلك أن إبهام المآل مع الوعيد يزيد المنذَرين خوفاً لجهلهم بالمصير، ولاسيما أن التهديد من العزيز الجبار القوي -سبحانه.

-أراك تكثر من ذكر أهمية اللغة العربية، وترجع إلى قواعدها وأساليبها البلاغية وأسرار الفصاحة فيها.

- نعم لا يمكن أن نفهم آيات الله، ما لم نتقن اللغة التي نزل بها واللسان الذي قرأه الرسول ﷺ على أصحابه بعد أن تلقاه من (الروح الأمين)، لغتنا أجمل وأكمل لغة يمكن أن يُتخاطب بها، ولكننا ابتعدنا عنها، أصبحنا أقرب إلى العجم منا إلى العرب.

كنت وصاحبي في مجلسنا المعتاد بين العشاءين في مكتبة المسجد نراجع حفظنا وقراءتنا في كتب التفسير.

نحن الآن مع آخر آية من سورة الشعراء ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾، تعال نتدبر هذه الآية المخيفة في تهديدها ووعيدها.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ (الشعراء).

ختم -سبحانه- هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله؛ فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾، فإن في قوله: سيعلم تهويلاً عظيماً، وتهديداً شديداً، وكذا في إطلاق الذين ظلموا، وإبهام أي منقلب ينقلبون، وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء، ولا وجه لذلك؛ فإن الاعتبار بعموم اللفظ، وقرأ ابن عباس والحسن (أي منفلت ينفلتون) بالفاء مكان القاف، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون والفاء الفوقية، وقرأ الباقون بالقاف والباء، من الانقلاب بالنون، والمعنى على قراءة ابن عباس والحسن: أن الظالمين يطمعون في الانفلات من عذاب الله والانفكاك منه ولا يقدرون على ذلك.

روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام» (صحيح لغيره: الألباني) وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم، قال: هيه فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت».

الآية بيّنت حال من يتبع الشعراء تشويهاً للفريقين وتنفيراً منهما. ومن هؤلاء: النضر بن الحارث، وهبيرة بن أبي وهب ومسافع بن عبد مناف،

وأبو عزة الجمحي، وابن الزبعرى، وأمية بن أبي الصلت، وأبو سفيان ابن الحارث، وأم جميل العوراء بنت حرب زوج أبي لهب التي لقبها القرآن: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ (المسد)، وكانت شاعرة وهي التي قالت:

مذمماً عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

فكان رد النبي ﷺ: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مُذمـمّاً ويلعنون مُذمـمّاً وأنا محمد**». رواه البخاري.

فكانت هذه الآية نفياً للشعر أن يكون من خلق النبي ﷺ وذماً للشعراء الذين تصدوا لهجائه. فقوله: يتبعهم الغاوون ذمّ لأتباعهم وهو يقتضي ذم المتبوعين بالأحرى؛ لأنه إذا كانوا يتبعهم الغاوون فقد انتفى أتباعهم عن الصالحين؛ لأن شأن المجالس أن يتحد أصحابها في النزعة كما قيل: (عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه) وجعله بعضهم للحصر، أي لا يتبعهم إلا الغاوون؛ لأنه أصرح في نفي اتباع الشعراء عن المسلمين. والرؤية في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قلبية لأن الهيام والوادي مستعاران لمعاني اضطراب القول في أغراض الشعر وذلك مما يعلم لا مما يرى. وضمائر (أنهم - ويهيمون- ويقولون- ويفعلون) عائدة إلى الشعراء. فجملة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ مؤكدة لما اقتضته جملة: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ من ذم الشعراء بطريق فحوى الخطاب.

ومثلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة؛ لأن الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس، ومن وصف وتشبيب بالنساء، ومدح من يمدحونه رغبة في عطائه وإن كان لا يستحق المدح، وذم من يمنعهم وإن كان من أهل الفضل، وربما ذموا من كانوا يمدحونه ومدحوا من سبق لهم ذمه. والهيام: هو الحيرة والتردد في المرعى. والواد: المنخفض بين عدوتين.

وإنما ترعى الإبل الأدوية إذا أقحلت الرُّبى، والرُّبى أجود كلأ، فمثل حال الشعراء بحال الإبل الراعية في الأودية متحيرة؛ لأن الشعراء في حرص على القول لاختلاب النفوس. روي أنه اندس بعض المزاحين في زمرة الشعراء عند بعض الخلفاء فعرف الحاجب الشعراء، وأنكر هذا الذي اندس فيهم، فقال له: هؤلاء الشعراء وأنت من الشعراء؟ قال: بل أنامن الغاوين، فاستطرفها.

وشفع مذمَّتَهم هذه بمذمة الكذب فقال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾. ناسب ذكر الظلم أن ينتقل منه إلى وعيد الظالمين وهم المشركون الذين ظلموا المسلمين بالأذى والشتم بأقوالهم وأشعارهم. وجعلت هذه الآية في موقع التذييل فاقتضت العموم في مسمى الظلم الشامل للكفر وهو ظلم المرء نفسه وللمعاصي القاصرة على النفس كذلك، وللاعتداء على حقوق الناس، وهذه الآية تحذير عن غمص الحقوق وحث عن استقصاء الجهد في النصح للأمة وهي

ناطقة بأهيب موعظة وأهول وعيدٍ لمن تدبرها لِـمَا اشتملت عليه من حرف (السين) المؤذن بالاقتراب، ومن اسم الموصول (الذين) المؤذن بأن سوء المنقلب يترقب الظالمين لأجل ظلمهم، ومن الإبهام في قوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ إذ ترك تبيينه بعقاب معين لتذهل نفوس الموعدين في كل مذهب ممكن من هول المنقلب وهو على الإجمال منقلب سوء.

والمنقلب: مصدر ميمي من الانقلاب وهو المصير والمآل؛ لأن الانقلاب هو الرجوع.

وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها.

فأخذه الله نكال الآخرة والأولى!

مشكلة غالب الناس أنهم لا يتعظون من غيرهم، وليس من الحكمة ألا يتعظ الإنسان من أخطاء غيره، لاسيما إذا كانت العواقب مهلكة، وهذا كان أسلوب الأنبياء مع أقوامهم، حتى النبي ﷺ، أمره الله أن يذكر قومه ما حدث للأمم السابقة، حتى لا يكون مصيرهم مثل مصيرهم.

- وهنا تحضرني بعض الآيات.

في سورة الأعراف يذكر الله حوار هود مع قومه (عاد): ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (الأعراف).

ويقول -سبحانه- عن ثمود قوم صالح: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (الأعراف).

وعن شعيب مع أهل مدين: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأعراف). ويجمل الله الغاية من ذكر الأمم السابقة: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (الأعراف).
كنت وصاحبي في جلسة حوارية، في أحد المقاهي القريبة من منزله، وكان الوقت ضحى، وكلانا لم يعد لديه إلتزام وظيفي -بفضل الله.

– وكما جعل الله الأمم السابقة عبرة للأمة، جعل بعض الأشخاص عبرة للمتكبرين والظالمين والجبابرة، ولعل أشهرهم فرعون، الذي بلغ غروره وكبره أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

– نعم، غرور بعض البشر، يجعله يدعي الألوهية، أستغفر الله، كما فعل (الذي حاج إبراهيم في ربه) (نمرود)، وكما ادعى قارون في جمع أمواله، ولكن حقاً لعل فرعون هو المثل الأول في هذا الأمر؛ لأن الله قال عنه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (يونس)، صدق الله العظيم، أغلب الناس يذهبون ليزوروا أهرامات الفراعنة وقبورهم دون أن يتفكروا في هذه الآية!

– دعني أقرأ لك ما ورد في كتب التفسير:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (القصص).

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ (النازعات).

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الشعراء).

قوله –تعالى–: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قال ابن عباس: كان بينها وبين قول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أربعون سنة، وكذَب عدوّ الله بل علم أن له ثم ربّاً هو خالقه وخالق قومه.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي نكال قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ (القصص:٣٨)، وقوله بعد: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات).

- **والمعنى**: أمهله في الأولى، ثم أخذه في الآخرة، فعذبه بكلمتيه، وقيل: نكال الأولى: هو أن أغرقه، ونكال الآخرة: العذاب في الآخرة، وقال قتادة وغيره. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (يونس) أي معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها، وقرئت «لمن خَلَفَكَ» (بفتح اللام)، أي لمن بقي بعدك يخلفك في أرضك. حشر الناس للحضور، فنادى أي قال لهم بصوت عال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي لا رب لكم فوقي.

والآلهة جمع إله، ووزنه أفعلة، وكان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر، وصوّروا لها صوراً عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار، أشهرها (فتاح) وهو أعظمها عندهم وكان يعبد بمدينة منفيس، ومنها (رع) وهو الشمس وتتفرع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس، ومنها (ازيريس) و(إزيس) و(هوروس) وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن، ومنها (توت) وهو القمر وكان عندهم رب الحكمة، ومنها (أمون رع) فهذه الأصنام المشهورة عندهم هي أصل إضلال عقولهم. وكانت لهم أصنام فرعية صغرى عديدة مثل العجل (إيبيس) ومثل الجعران وهو الجُعلُ.

وتوعد فرعون موسى وقومه بالاستئصال بقتل الأبناء والمراد الرجال بقرينة مقابلته بالنساء. وعلا فرعون في الأرض علوّ طاغية من البشر على

غيره من البشر المستضعفين، وقال الحق -سبحانه- على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ (الزخرف).

- فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف. وعندما ذكر الله إيمان السحرة بين أن بعضهم قال ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه)، وبعضهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الشعراء). مع استحضار قول فرعون أنا ربكم الأعلى فربما يفهم من قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، أنه فرعون، فهو الذي ربى موسى وهو صغير كما قال -تعالى:﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا**﴾ وآخر قد فطن إلى هذه المسألة، فكان أدق في التعبير، فقال: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ (طه)، وجاء أولاً بهارون الذي لا علاقة لفرعون بتربيته، ولا فضل له عليه، ثم جاء بعده بموسى -عليه السلام.

تبت يدا أبي لهب وتب!

لقد تحدى الله – عز وجل – أكثر الناس فصاحة وأبلغهم أداء أن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن، ولو مثل أقصر سورة في كتاب الله، ثلاث آيات، مثل سورة العصر، أو الكوثر، أو النصر، وهي أقصر سور القرآن، فعجزوا مع حاجتهم ورغبتهم وحرصهم على تكذيب الرسول ﷺ.

– لماذا كان التحدي بسورة وليس بعدد معين من الآيات؟

– السورة لها بداية ونهاية وغرض، وتتناول موضوعاً بعينه، وإن كانت من السور القصيرة، لذلك كان التحدي بسورة مترابطة متكاملة، وهذا ركن أساس في بيان مكانة النص وبلاغته وفصاحته.

صاحبي من محبي اللغة العربية وهو المرجع لمجموعة المسجد في كتابة الرسائل الهاتفية وكتابة صيغ الدعوات للزواج أو المنزل الجديد أو قدوم مولود.

– والإعجاز اللغوي في القرآن هو المعجزة التي أعطاها الله – عز وجل – رسولنا ﷺ وكما تحدى الأولين، فإن التحدي قائم إلى يوم القيامة، وكما قال ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحي إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». (مسلم)

بدأ الديوان يكتظ بالحضور، حيث حرص صاحب المكان أن يبلغ أكثر عدد من الأصدقاء والمصلين في مسجدنا والمساجد القريبة عن هذه الندوة.

دعوني أضرب مثلاً: كلنا يحفظ سورة (المسد)، خمس آيات في ذم أبي لهب، وبيان مصيره وزوجته أم جميل، نزلت في أوائل بعثة النبي ﷺ بعد الفاتحة، وقيل هي سادس سورة نزلت على النبي ﷺ لماذا لم يعلن أبو لهب إسلامه، ويتبع ابن أخيه محمد ﷺ ليكذب ما ورد في هذه السورة؟ لم يكن له ذلك، لأن المنزل هو الله الذي يعلم مصيره، في الدنيا والآخر، منطقياً كان يمكن أن يقولَ: يزعم محمد أنني في النار، وأنا أشهدكم أنني أؤمن به رسولاً من عند الله، لم يكن ذلك، بل ازداد عداءً للنبي ﷺ.

ونقطة أخرى، كان أبو سفيان من صناديد قريش، ومن الذين عادوا الرسول ﷺ وآذوه، ولكنه لم تنزل ببيان مصيره آية وأسلم في فتح مكة بعد عشرين سنة من عدائه للرسول ﷺ، بل وأكرمه الرسول ﷺ، فقال: «ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، أليس في ذلك آية أن القرآن ينزل من لدن عليم خبير؟! وتعالوا نتدبّر تفسير هذه السورة القصيرة المعجزة.

أبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب وهو عم النبي ﷺ وكنيته أبو عتبة تكنية باسم ابنه، وأما كنيته بأبي لهب في الآية فقيل: كان يكنى بذلك في الجاهلية (لحسنه وإشراق وجهه) وأنه اشتهر بتلك الكنية فسماه القرآن بكنيته دون اسمه، لأن في اسمه عبادة العزى، وذلك لا يقره القرآن، أو لأنه كان بكنيته أشهر منه باسمه العلم والأب، يطلق على ملازم ما أضيف إليه، كما كني إبراهيم – عليه السلام –: أبا الضيفان وكَنّى النبي ﷺ عبدالرحمن بن صخر الدوسي، أبا هريرة، لأنه حمل هرة في كُم قميصه، وفي الصحيحين وغيرهما (واللفظ لمسلم) عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء)، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا،

فهتف: يا صباحاه! من هذا الذي يهتف؟ قال محمد: فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبدمناف، يا بني عبدالمطلب، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟، قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ إلى آخر السورة.

افتتاح السورة بالتباب مشعر بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد، فذلك براعة استهلال، مثلما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم ومنه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ (المطففين).

يقول تعالى ذكره: خسرت يدا أبي لهب، وخسر هو، وقيل عنى بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ تب عمله، وأما قوله ﴿وَتَبَّ ۝١﴾ فإنه خبر للتأكيد ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾ (غافر)، أي في خسران وضلال، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾، أقبلت العوراء أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه، فقال أبوبكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال ﷺ: «إنها لن تراني وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ (الإسراء)، فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه، فلم تر النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر بَلَغَني

أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها.

والتعبير بالماضي في قوله: ما أغنى لتحقيق وقوع عدم الإغناء.

وما: نافية ويجوز أن تكون استفهامية للتوبيخ والإنكار، أي ما أغنى عنه ماله التالد وهو ما ورثه عن أبيه عبدالمطلب وما كسبه بنفسه.

وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي، فأنزل الله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾، وقال ابن عباس: ما كسب هو ولده فإن الولد من كسب أبيه، أعقب ذم أبي لهب ووعيده بمثل ذلك لامرأته، لأنها كانت تشاركه في أذى النبي ﷺ وتعينه عليه، وامرأة أبي لهب هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وقيل: اسمها العوراء، فقيل هو وصف وإنها كانت عوراء، وقيل: اسمها، وذكر بعضهم، أن اسمها العواء بهمزة بعد الواو.

وكانت أم جميل تحمل حطب العضاة والشوك فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته ليُعقر قدميه، فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جعل لامرأته وعيداً مقتبساً لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا، فأنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها، إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها.

وجملة، ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ صفة ثانية أو حال ثانية وذلك

إخبار بما تعامل به في الآخرة، أي جعل لها حبل في عنقها تحمل فيه الحطب في جهنم لإسعار النار على زوجها جزاءً مماثلاً لعملها في الدنيا الذي أغضب الله تعالى – عليها. والجِيد: العنق وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محل القلادة منه فقلّ أَن يذكر العنق في وصف النساء في الشعر العربي إلا إذا كان عنقاً موصوفاً بالحسن وقد جمعهما امرؤ القيس في قوله: وجيد كجيد الرنم ليس بفاحش، إذا هي نصته ولا يعطل.

والحبل: ما يربط به الأشياء التي يراد اتصال بعضها ببعض وتقيد به الدابة والمسجون كيلا يبرح من المكان. والمسد: ليف من ليف اليمن شديد، والحبال التي تفتل منه تكون قوية وصلبة، وقدّم الخبر من قوله: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عوضت فيها بحبل في جيدها عن العقد الذي كانت تحلى به جيدها في الدنيا فترتبط به، إذ قد كانت هي وزوجها من أهل الثراء وسادة أهل البطحاء، وقد ماتت أم جميل على الشرك.

لئن لم ينته المنافقون!!

في كتاب الله آيات تحذر وتهدد وتتوعد فئات من البشر، من الظالمين والمفسدين في الأرض والمنافقين، وهذه الفئة الأخيرة نالت النصيب الأكبر من فضح أسرارهم وكشف خباياهم ونشر أحوالهم التي يجتهدون في سترها عن المؤمنين؛ لأنهم يعيشون معهم، يحضرون جمعهم وجماعاتهم ويشاركونهم تفاصيل الحياة اليومية، ولكن الله تكفل بإخراج ما في قلوبهم، ونشر خبايا تصرفاتهم التي يسترونها عن المؤمنين، عن حضورهم الصلاة مع المؤمنين، قال -تعالى-: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾، وعن إنفقاهم: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾، وعن تصرفاتهم في المجالس العامة: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (التوبة)، يظنون أنهم يخدعون المؤمنين ولكنهم ما يخدعون إلا أنفسهم؛ ذلك أن الله كشفهم للمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ (النساء).

كنت وصاحبي في مجلسنا المعتاد بعد صلاة الجمعة، نجتمع نصف ساعة، نتحدث عن أحداث الأسبوع وخطبة الجمعة وقضايا العقيدة والكتب.

- وما الحكمة من ذكر صفات المنافقين بهذا التفصيل الدقيق، حتى إن ما يخفون في صدورهم يظهره الله؟!

- حكم كثيرة وعظيمة، منها: فضحهم لعلهم يرجعون عن غيّهم

ويتوبون عن نفاقهم، وتحذير المؤمنين أن يتصفوا بشيء من صفاتهم أو يقعوا في شيء من تصرفاتهم، وتنبيه الصادقين إلى خططهم ومكرهم وكيدهم للحذر منهم، وأخذ الحيطة في التعامل معهم، ومن الحكمة أن القرآن وحي من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فكل ما فيه حق وإن لم يظهر فوراً للمؤمنين، ولكنهم يؤمنون به وإن لم يروه.

- هل سورة التوبة أكثر سورة فضحت المنافقين؟

- الآيات التي فضحت أحوال المنافقين كثيرة، وتعلم أن في القرآن سورة (المنافقون)، ولكن سورة التوبة -فعلاً- من أسمائها (الفاضحة) و(الكاشفة)؛ لما ذكر فيها من أحوال المنافقين.

ولعل أشد آية على المنافقين قوله -تعالى-: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (التوبة)، ومع ذلك استمروا في نفاقهم، ولذلك توعدهم الله وهددهم بآيات بينات منها قوله -سحانه-: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب).

في تفسير هذه الآيات: توعد -سبحانه- أهل النفاق والإرجاف فقال: لئن لم ينته المنافقون عما هم عليه من النفاق، والمرجفون في المدينة عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين، وظهور المشركين عليهم فسوف يصيبهم ما ذكر بعد..

- **والإرجاف في اللغة**: إشاعة الكذب والباطل، من الرجفة وهي: الزلزلة.

- يقال رجفت الأرض: أي تحركت، فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجالس ونواد، ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل.

كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا، وتارة بأنهم قتلوا، وتارة بأنهم غلبوا ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار، فتوعدهم الله -سبحانه- بقوله: ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك.

وهم الذين قال الله فيهم ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ (النساء:٨٣)، فهذه الأوصاف لأصناف من الناس، وكان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين.

وقيل معنى الآية: أنهم إن أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون، سنّة الله في الذين خلوا من قبل أي: سنّ الله ذلك في الأمم الماضية وهو لعن المنافقين، وأخذهم، وتقتيلهم، وكذا حكم المرجفين، وصرح هنا بما كني عنه في الآيات السالفة؛ إذ عبر عنهم بالمنافقين، فعلم أن الذين يؤذون الله ورسوله هم المنافقون ومن لف لفهم. وبهذا الوعيد كف المنافقون أذاهم عن المسلمين، فلم يقع التقتيل فيهم؛ إذ لم يحفظ أن النبي ﷺ قتل منهم أحداً، ولا أنهم خرج منهم أحد. وهذه الآية ترشد إلى تقديم إصلاح الفاسد من الأمة على قطعه منها؛ لأن إصلاح الفاسد يكسب الأمة فرداً صالحاً أو طائفة صالحة تنتفع الأمة منها كما قال النبي ﷺ: «لعل الله

أن يخرج من أصلابهم من يعبده» (متفق عليه). ويمكن تفسير (سنة الله): سن الله إغراءك بهم سنته في أعداء الأنبياء السالفين وفي الكفار المشركين الذين قتلوا وأخذوا في غزوة بدر وغيرهم.

والذين خلوا: الذين مضوا وتقدموا، والأظهر أن المراد بهم من سبقوا من أعداء النبي ﷺ الذين أذن الله له بقتلهم، مثل: الذين قتلوا من المشركين، ومثل الذين قتلوا من يهود قريظة، وهذا أظهر، لأن ما أصاب أولئك أوقع في الموعظة؛ إذ كان هذان الفريقان على ذكر من المنافقين وقد شهدوا بعضهم وبلغهم خبر بعض. ويحتمل أيضا أن يشمل الذين خلوا الأمم السالفة الذين غضب الله عليهم لأذاهم رسلهم؛ فاستأصلهم الله -تعالى- مثل قوم فرعون وأضرابهم.

والله يشهد إن المنافقين لكاذبون!

من معجزات القرآن أنه أخبر عن أحاديث المنافقين فيما بينهم، بل وأخبر بمقاصدهم وما يخفونه في صدورهم من نوايا فاسدة ومخططات خبيثة، وتحداهم، وأخبرهم بسوء عاقبتهم في الآخرة، والآيات في فضح المنافقين ووعيدهم كثيرة في كتاب الله، منها: سورة التوبة (براءة) تسمى أيضا (الفاضحة)، وفي كتاب الله سورة (المنافقون)، ومع ذلك بقي منافقون في زمن النبي ﷺ وسيكون أمثالهم في هذه الأمة إلى يوم القيامة.

الحمدلله أن عافانا من النفاق، اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم.

صاحبي (د. بدر) تخرج من جامعة الزيتونة في تونس، وتخصص في الدراسات الإسلامية، ويمزج كلامه ببعض الألفاظ المغاربية الجميلة، ويحفظ القرآن برواية (ورش عن نافع).

- ألا تُسمعنا شيئاً من القرآن بالرواية التي تحفظها، آيات في المنافقين وأوصافهم؟

- بلى، بسعادة وسرور.

وأخذ يقرأ، وأنا أنصت مستمعا.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ (البقرة).

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ (النساء).

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (التوبة).

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ (المنافقون).

واسمع إلى تفسير بعض هذه الآيات من عالم المغرب العربي الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالى-، عن زيد بن أرقم، قال: «خرجت مع عمي في غزاة، فسمعت عبدالله بن أبيّ بن سلول يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل إليّ، فحدثته، فأرسل إلى عبدِالله علياً - رضي الله عنه - وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، قال: فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همّ لم يصبني مثله قط،

فدخلت البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذّبك رسول الله ﷺ ومقتك، قال: حتى أنزل الله -عزّ وجل-: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، قال: فبعث إليّ رسول الله ﷺ فقرأها، ثم قال: «إن الله -عز وجل- قد صدقك يا زيد».

فلما نزلت هذه السورة أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد فقال: «**هذا الذي أوفى الله بأذنه**». (أخرجه الترمذي قال: هذا حديث حسن صحيح).

في سورة (المنافقون):

فضح الله أحوال المنافقين بذكر كثير من دخائلهم، وتولد بعضها عن بعض من كذب، وخَيْسٍ بعهد الله، واضطراب في العقيدة، ومن سفالة نفوس في أجسام تغرُّ وتعجب، ومن تصميم على الإعراض عن طلب الحق والهدى، وعلى صدّ الناس عنه.

جيء بفعل يشهد في الإخبار عن تكذيب الله -تعالى- إياهم للمشاكلة حتى يكون إبطال خبرهم مساوياً لإخبارهم.

وفي آيات سورة البقرة:

الخداع: وقيل: أصله الإخفاء، ومنه مخدع البيع الذي يحرز فيه الشيء، قال -تعالى-: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ (البقرة)، نفي وإيجاب، أي ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم، ومن كلامهم: من خدع من لا يخدع فإنما يخدع نفسه.

والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله، قال الحسن: يعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نور يوم القيامة فيفرح المنافقون ويظنون

أنهم قد نجوا، فإذا جاؤوا إلى الصراط طفئ نور كل منافق، فذلك قولهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ (الحديد: ١٣).

وفي سورة النساء:

قوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ (النساء: ١٤٢).

أي يصلون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون، لا يرجون ثواباً ولا يعتقدون على تركها عقاباً، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة، فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حُزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**» (مسلم).

وقال ﷺ ذامّاً من أخّر الصلاة: «**تلك صلاة المنافقين - ثلاثاً - يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان أو على قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر فيها إلا قليلاً**» رواه مالك وغيره وصححه الألباني.

عقب التعريض بالمنافقين من قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ (النساء: ١٤٤)، كما تقدم بالتصريح بأن المنافقين أشد أهل النار عذاباً، فإن الانتقال من النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين يؤذن بأن الذين اتخذوا الكافرين أولياء معدودون من المنافقين.

وتأكيد الخبر بـ(إن) لإفادة أنه لا محيص لهم عنه.

والـدرك: جمع دركـة، ضد الـدرج جمع درجـة. والدركة المنزلة في الهبوط، وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل، أي في أذل منازل العذاب؛ لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حف به من الرذائل.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ (النساء) لكل من يصح منه سماع الخطاب، وهو تأكيد للوعيد، وقطع لرجائهم؛ لأن العرب ألفوا الشفاعات والنجدات في المضائق، فلذلك كثر في القرآن تذييل الوعيد بقطع الطمع في النصير والفداء ونحوهما.

أولئك في الأذلين

أصبح الناس يتفاضلون بثرواتهم، وحساباتهم البنكية، دون اعتبار للدين والخلق والاستقامة، (قيمتك في المجتمع.. رقم في البنك)، وبعضهم يعلن ذلك ويتبجح به: (مدخولي في يوم واحد يفوق دخل الأساتذة والأطباء المتخصصين في شهر!)، وبعضهم يعمل على أن يربي ذريته على هذا المبدأ منذ الصغر.

كنت وصاحبي نتابع حواراً اجتماعياً عن (القِيم) في إحدى الفضائيات.

– مشكلة من ينغمس في الدنيا أنه.. يختم على قلبه وسمعه وتصبح على بصره غشاوة، فلا يرى الحقائق ولا يسمع البراهين ولا يعقل الأدلة وإن كانت أمامه، هذا الذي يتباهى بماله، أو شهرته، ويظن أنه «نجح» في حياته، لا يرى أبعد من طرف أنفه، يسمع عن الموتى، ولا يهتم، وكأنه غير مشمول بهذه القضية «محمي» عنها، يسمع الآيات، وكأنها لاتخاطبه ولا تعنيه، اختار (السمعة) في الدنيا والشقاء في الآخرة، ولاسيما إذا تكبر وتجبر وأعرض عن دين الله، وهذه سنة الله في خلقه، تعال نقرأ آيات الله فيمن حادّ الله ورسوله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ (المجادلة). عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يقول: يعادون الله ورسوله.

في التفسير: إن الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه، فيجعلون حدوداً غير حدوده، وذلك هو المحادّة لله ولرسوله. ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ غيظوا وأخزوا كما غيظ الذين من قبلهم من الأمم الذين حادّوا

الله ورسوله. والكبت: الخزي والإذلال وفعل كبتوا مستعمل في الوعيد أي سيكبتون، فعبر عنه بالمضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في خبره مثل ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ (النحل)؛ ولأنه مؤيد بتنظيره بما وقع لأمثالهم.

ويزيد ذلك وضوحاً قوله: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وتعريف (الكافرين) تعريف الجنس ليستغرق كل الكافرين.

ووصف عذابهم بالمهين لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذلُّ والإهانة، وبعد خمس عشرة آية يكرر الله -عز وجل- الأمر فيقول -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ (المجادلة).

المحادّون المذكورون في هذه الآية هم المسرون للمحادة المتظاهرون بالموالاة، وهم المنافقون، والآية التي قبلها في الكافرين و(الأذلين) أي شديدو المذلة ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنهم أذلون، فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال: أولئك هم الأذلون.

واسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبل اسم الإشارة وجملة (كتب الله لأغلبن) علة لجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ أي لأن الله أراد أن يكون رسوله ﷺ غالباً لأعدائه وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغلبها شيء، وقد كتب لجميع رسله الغلبة على أعدائهم، فغلبتهم من غلبة الله والمراد: الغلبة بالقوة؛ لأن الكلام مسوق مساق التهديد، وأما الغلبة بالحجة فأمر معلوم.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ يقول: قضى الله وخط في أم الكتاب، لأغلبن أنا ورسلي من حادّني وشاقّني.

قال عطاء: يريد الذل في الدنيا والخزي في الآخرة ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم في الأذلين، أي: كتب في اللوح المحفوظ، وقضى في سابق علمه: لأغلبن أنا ورسلي بالحجة والسيف، قال الزجّاج: معنى غلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب، ومن بعث منهم بغير الحرب فهو غالب بالحجة.

وقال -سبحانه-: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ (الحج). أي من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه.

والمعنى: أن الله أهانهم باستحقاق العذاب فلا يجدون من يكرمهم بالنصر أو بالشفاعة. وفي سورة الدخان يقول -سبحانه-: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ (الدخان).

مرّ أبو جهل برسول الله ﷺ وهو جالس: فلما بعد قال رسول الله ﷺ: أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى. فلما سمع أبو جهل قال: من توعدُ يا محمد؟ قال: إياك، قال: بما توعدني؟ قال: أوعدك بالعزيز الكريم، قال أبو جهل: أليس أنا العزيز الكريم؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه.

فأنزل الله -تعالى-: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زبداً وتمراً فقال: تزقموا من هذا، فو الله ما يتوعدكم محمد إلا بهذا، فأنز الله ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾. هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان.

وفي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الكهف)» متفق عليه.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
فأتوا بكتاب من عند الله	٩
فأتوا بعشر سور من مثله	١٣
فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا	١٧
أم يقولون تقوّله	٢١
هذا خلق الله	٢٥
أفمن يخلق كمن لا يخلق؟	٢٨
ماذا خلقوا من الأرض؟!	٣٢
أم خلقوا السموات والأرض؟!	٣٥
أم عندهم خزائن ربك؟!	٣٨
أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟	٤٠
قل لمن الأرض ومن فيها؟	٤٤
من بيده ملكوت كل شيء؟	٤٩
إلهكم إله واحد!	٥٣
أإله مع الله؟ (١)	٥٧
أإله مع الله؟ (٢)	٦١

من إله غير الله؟	٦٥
لو كان فيهما آلهة إلا الله!	٦٩
ويوم يقول نادوا شركائي!	٧٣
قوله سبحانه: ﴿أين شركائي﴾؟	٧٧
هل من شركائكم؟	٨٠
من ينجيكم؟	٨٤
كيف تكفرون بالله؟	٨٨
فأي آيات الله تنكرون؟	٩٢
هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين!	٩٦
هل ينفعونكم أو يضرون؟	١٠٠
لا يملكون ضراً ولا نفعاً	١٠٣
فادعوهم فليستجيبوا لكم!	١٠٧
بل إياه تدعون!	١١١
قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم من إله غير الله يأتيكم به (١)	١١٥
قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم من إله غير الله يأتيكم به (٢)	١١٨
أَمَّنْ هذا الذي يرزقكم؟	١٢١
ما يملكون من قطمير!	١٢٥

ضعف الطالب والمطلوب	١٢٩
فأتنا بما تعدنا	١٣٣
فماذا بعد الحق إلا الضلال	١٣٧
طلبوا العذاب... فجاءهم العذاب!	١٤١
فأمطر علينا حجارة من السماء	١٤٦
قل كونوا حجارة أو حديداً	١٥١
أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة (١)	١٥٥
أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة (٢)	١٥٨
فليرتقوا في الأسباب!	١٦١
فتمنوا الموت إن كنتم صادقين!	١٦٥
نحن قدَّرنا بينكم الموت	١٧٠
قل الله يحييكم ثم يميتكم	١٧٤
قل يحييها الذي أنشأها أول مرة	١٧٨
فلولا إذا بلغت الحلقوم	١٨٢
فبُهت الذي كفر!	١٨٦
لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين	١٩٠
أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون؟	١٩٤
إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً	١٩٩

وعند الله مكرهم	٢٠٣
قل الله أسرع مكراً	٢٠٨
هو معهم أينما كانوا	٢١٢
وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون	٢١٦
فأخذه الله نكال الآخرة والأولى	٢٢١
تبت يدا أبي لهب وتب	٢٢٥
لئن لم ينته المنافقون...	٢٣٠
والله يشهد إن المنافقين لكاذبون	٢٣٤
أولئك في الأذلين	٢٣٩
الفرس	٢٤٣